منهج حديث لدراسة نصوص قديمة لطرفة بن العبد

أ.د. عمر محمد الطالب
قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ جامعة الموصل

المستخلص

حركة الانسان الأولى كانت مع الطبيعة، وهذه الحركة مشروطة بالظرف الطبيعي الذي يحتضن الانسان فتكون اما حركة ائتلاف وتعايش، واما حركة نفور وتصادم وتكون الطبيعة الخصبة ملاذا للانسان في ازماته المادية والنفسية وتكون اما يلجأ لاحضانها ويندمج فيها، اما الطبيعة المجدبة فتكون سجنا للانسان يحاول جاهدا التخلص منه وتتلون نفسيته ومزاجه بهذا التناقض الحاد بين الحقيقة التي يصبو اليها والواقع الذي يكبله فتهزمه الطبيعة وتخضعه للواقع فيحاول ان يهزمها ويخضعها في الخيال.

تمهيد:

في بدء دراستنا هذه نقترح الحديث عن البيئة الجاهلية لان العامل البيئي هو احد المحددات المهمة للانطلاقة الانسانية، ولم يبالغ فكتور كوزان بقوله: " اعطوني خريطة بل، مناخه ورياحه وكل جغرافيته المادية ومنتجاته الطبيعية نباته وحيوانه، فاتعهد اني انبئكم بما سيكونه انسان هذا البلد وبالدور الذي سيعبه البلد في التاريخ واخيرا بالفكر الذي كتب عليه ان يمثلها" [(١)].

وحركة الانسان الأولى كانت مع الطبيعة، وهذه الحركة مشروطة بالظرف الطبيعي الذي يحتضن الانسان فتكون اما حركة ائتلاف وتعايش، واما حركة نفور وتصادم وتكون الطبيعة الخصبة ملاذا للانسان في ازماته المادية والنفسية وتكون اما يلجأ لاحضانها ويندمج فيها، اما الطبيعة المجدبة فتكون سجنا للانسان يحاول جاهدا التخلص منه وتتلون نفسيته ومزاجه بهذا التناقض الحاد بين الحقيقة التي يصبو اليها والواقع الذي يكبله فتهزمه الطبيعة وتخضعه للواقع فيحاول ان يهزمها ويخضعها في الخيال.

والبيئة الجاهلية شكلت بمناخها الصحراوي عقبة رئيسية امام الانسان وكبلت تطلعه الحضاري بتحديدها مجالات ابداعه على كل الاصعدة في المجتمع الذي اختلط فيه اسلوب الانتاج الرعوي المسيطر باسلوب انتاج الصيد الذي يمكننا استقراءه من الشعر الجاهلي[(٢)] هذا بالاضافة الى الاسلوب التجاري كوسيلة اقتصادية اساسية للمدن والحواضر الداخلية بسبب تمركز البدو في وسط الجزيرة بعيدا عن المنافذ البحرية.

وتبعا لهذه المواصفات الانتاجية كان النظام الاجتماعي قبليا ذا نزعة ارستقراطية في الحواضر القلبية، وكان هذا النظام يسحق الفرد بدلا من ان يكلفه لانه يقوم على دعائم عرفية اساسها القرابة والدم، وقد نشأ تبعا لذلك تفاوت مادي وصل حد التنافس يكرسه الاستغلال الاقتصادي والعبودية المسلطة من قبل السادة، لقد زاد هذا الوضع الاقتصادي من حدة الصراع بين الانسان والطبيعة فسعى الانسان الجاهلي للانفلات من تلك الصحراء القاحلة فتوالت الهجرات الى شمال الجزيرة وتأسست مدينة (الحيرة) كحاضرة للمناذرة، والى خارج الجزيرة فتأسست تدمر كما تشكلت في بلاد الشام حواضر الغساسنة. ولكن سرعان ما وقع توظيفها في خدمة الفرس والبيزنطيين لذلك لم تستطع هذه الممالك التغلغل في كيان الفرد العربي بل زادت من عمق ازمته وتهدمه الحضاري من خلال التحديات الاقتصادية التي كانت دولة المناذرة تريد فرضها بواسطة كتائب النعمان (الشهباء والدوسر) وعبر الاشكال التعسفية المتمثلة بانواع الضرائب التي كانت تجبى وتؤخذ من القبائل المتاخمة في سكناها لهذه الدولة[٣].

واستطاعت قبيلة كندة انشاء مملكة احتفظت بطابعها البدوي وحافظت على استقلالها السياسي نسبيا[٤] الا انها لم تؤثر في التركيبة السياسية والاجتماعية للمجتمع الجاهلي لانها لا تكاد تختلف عنه في شيء. هذا التمزق السياسي بالاضافة الى قحط الطبيعة وجور النظام الاقتصادي حقق شعور الفرد بالاستلاب الحضاري وعمق الهوة بين الواقع الاجتماعي والتطلع الفردي، وتعددت محاور الصراع بتعدد محاور الكبت المسلطة على الانسان، وكم كانت حاجة الجاهلي شديدة لعقيدة دينية تساعده على الهروب من واقع كئيب ان لم تساعده على تغييره.

وبالرغم من تعدد الاديان في العصر الجاهلي من وثنية الى مزدكية ومجوسية خاصة في تميم[٥] ونصرانية ويهودية في يثرب وجنوب الجزيرة العربية الا ان هذه الديانات لم تستطع ان نقلل من مأساوية الحياة ومن تأزم الفرد الروحي لانها في معظمها غريبة النشأة عن الواقع الجاهلي فيما عدا عبادة الاصنام فلم تستطع التغلغل في اعماقه فالمسيحية مثلا عالجت صراع الفرد مع المجتمع معالجة مثالية بينما يطلب الجاهلي حلا ماديا لانه يتعامل مع المحسوسات وتعامله مع الواقع حسي حاد فظل مشدودا للجزئيات الحسية حتى في اعلى مراتب خياله لان الواقع السلبي لايساعده على التجريد بل يكبله الى درجة يكاد يكون معها الانسان الجاهلي جزئية متحركة من جزيئات الواقع، فقد كان الفرد يعاني صعوبات الحياة تحت الشمس المحرقة ويجرجر قدمه مرتحلا في دروب الام الرمال المحترقة. وظل الجاهلي يتطلع الى شيء مايعبر به حدود الالم ويتشبث من خلاله بالمطلق والكلي، الى شيء ما يهزم به العدم ويوسع به افق الوجود.

وقد كانت فترة الجاهلية فترة مخاض تجسدت ولادتها في الدين الاسلامي الذي استوعب الموروث الحضاري بمكوناته الفكرية والاقتصادية، والذي يعد المدخل الرئيس لكيان الفرد الجاهلي ونفسيته، وبهذا الدين الجديد انطلق الانسان الصحراوي ونفض عنه غبار التهدم والاستلاب وتدفقت فيه الحيوية فاصبح عملاقا لم تعد الصحراء تتسع لروحه وخياله فانطلق منها وفاض على ماحوله.

ماهي وسيلة تعبير الفرد في هذه الفترة عن كينوناته وتطلعاته الشعورية واللا شعورية؟ لعل الشعر هو مجال التنفيس الوحيد فنحن لانستطيع ان نفصل الابداع الفني في كل مجالاته عن نمط الانتاج كما لايمكن ان نفصل الحياة الفكرية عن الحياة الاجتماعية[٦].

يخضع مجمل النشاط الفكري والنفسي في الحياة الانسانية للبنية التحتية الاقتصادية في المجتمع، والصلة الوثيقة بين البنية التحتية والبنية الفوقية في تركيبه المجتمع، وتختلف هذه الصلة بحسب صلة البنية بحياة الانسان الواقعية. ويشكل الفن بعامة والادب بخاصة بنية فوقية تبدو منفصلة عن العامل الاقتصادي لانها تشكل مجمل التشريدات الانسانية وتعبر لاعن الانسان كحاضر فقط بل كماضي وطموح (عبر اللا شعور) تبدو منفصلة لانها تخضع لتأثير العامل الاقتصادي بصورة غير مباشرة وعلى نحو بالغ التعقيد[٧] لذلك فان هذا الترابط المشروط بين الفن وسائر بني المجتمع يمكننا من فهم هذا النشاط الانساني ويبعدنا عن التصور الاسطوري المظلل للادب والفن[٨].

يمثل الشعر الجاهلي اداة التعبير الأولى في المجتمع لذلك انصهرت فيه كل التفاعلات الاجتماعية بجميع اشكالها المادية والنفسية فـ " كان الشعر الجاهلي هو متنفس الافراد الوحيد، كان موقفهم الدنيوي وكان تحديا اخر عظيما تحدوا به الموت والفناء، فيه يقهرون الموت والفناء، والقهر الوحيد المتاح للانسان في هذه الدنيا: خلقوا شيئا جديدا من ذوات انفسهم وصميم احشائهم واعصابهم وانسجة عقلهم"[٩].

ان قيمة الشعر الجاهلي لاتطفوا على السطح بل تتفاعل داخليا تفاعلا قويا يدل على صدق معاناة الانسان وعلى صدق نضاله ضد قوى الهدم الكثيرة التي تحاول اغراقه في العدم لان " الفنان يحاول بعمله الفني ان يصل الى الامتلاء، وان يتجاوز الحدود التي يفرضها عليها استلاب الاجتماعي، وان يعبر عن كلية تظاهرات الحياة في شروط تاريخية معينة لايملك بالبداهة ان يلغيها"[١٠]. والشعر كما يرى (شللر) يعبر عن الرغبة في الانعتاق من الواجب والضرورة بمحاولته

اقامة ملكوت الحركية والصفاء[١١]. والشعر كما يقول (فرويد) هو صدق الشاعر وهو ان ينطلق من الواقع ويصدق في التعبير عنه، الا ان تعبيره انفعالي وجداني عميق وليس فكريا منطقيا[١٢].

١- شخصية طرفة من خلال شعره:

ولد طرفة (وواحداها الطرفاء وهو شجر معروف) ولقب بها الشاعر بين عامين ٥٢٨-٥٤٢م بدلالة الاخبار التي تقول انه قتل في عهد الملك عمرو بن عند الذي تولى ملك الحيرة من سنة ٥٥٤ – ٥٦٨م، كما اختلف الرواد في تحديد سنة بين العشرين والسادسة والعشرين[١٣]. ونحن نميل الى الرقم الاخير استنادا لرثاء اخته (الخرنق) له بقولها:

عددنا له ستا وعشرين حجة　　　فلما توفاها استوى سيدا ضخما
فجعنا به لما رجونا ايابه　　　على خير حال ولا وليدا ولا قحما

وهو عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة ابن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن اقصى بن دعمي بن جديلة بن اسد بين ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[١٤].

ان اباه (العبد) اخا للمرقش الاصغر وهو اخ للمرقش الاكبر، وكانت امه (وردة) اخت المتلمس، وله اخت اسمها (الخرنق) وأخ اسمه (معبد)، ولم يرد في التاريخ او في شعره مايدلل على انه خلف ذرية ونزلت عشيرته البحرين على الخليج العربي[١٥].

مات والده وهو صغير وأجحف أعمامه حقه فلم يقسموا له ماله وظلموا امه حقها، يقول طرفة:

ماتنظرون بحق وردة فيكم　　　صغر البنود ورهط وردة غيب

****

ولقد بدا لي انه سيغولني　　　ماغال عادا والقرون فاشعبوا
أدوا الحقوق تغر لكم إعراضكم　　　ان الكريم اذا يجرب يغضب[١٦]

وكان طرفة تياها معجبا بنفسه شديد الاعتزاز بها، وكان لشعوره باليتيم ينبيء عن رجولة مبكرة، وكان يقتفي اثار والده. يقول طرفة:

لاكرم نفسي ان ارى متخشعا　　　لذي منه يعطي القليل على الرخص
أكف الاذى عن اشرتي متكرما　　　على ان اجزي المقارض بالقرض

وابذل معروفي وتصفو خليقتي اذا كدرت اخلاق كل فتى محض
وامضي همومي بالزماع لوجهها اذا مامور لم يكد بعضها بمضي
واقضي على نفسي اذا الحق نابني وفي الناس من يقضي علي ولايقضي
واني لذو حلم على ان سورتي اذا هزني قوم حميت بها عرضي
وان طلبوا ودي عطفت عليهم ولاخير فيمن لايعود الى خفض
ومعترض في الحق غيرت قوله وقلت له ليس القضاء كما يقضي
ركبت به الاهوال حتى تركته بمنزل ضنك مايكد ولايمضي
ولست بذي لونين فيمن عرفته ولا البخل فاعلم من سمائي ولا ارضي
قد امضيت هذا من وصية عبدل ومثل الذي اوصى به عبدل امضي
اذا مت فابكيني بما انا اهله وحضي على الباكيات مدى الحض(١٧)

وقد اتصل طرفة بالملك عمرو بن هند – ملك المناذرة – حيث وفد عليه مع خاله المتلمس، فنادمهما الملك ومثكا عنده زمنا، ولم تصلنا قصيدة في مدحة لملك عمر سوى ابيات يقول فيها:

يداك يد خيرها يرتجى واخرى لاعدائها غائظة
فاما التي خيرها يرتجى فاجود جودا من اللافظة
واما التي شرها يتقى فسم مقاتله لافظة
اذا لدغت وجرى سمها فنفس اللديغ بها فائضة(١٨)

وحديث قطيعة بين طرفة والملك عمرو بن هند واضمر له الملك الشر وكان شديدا تسمية العرب (مضرط الحجارة) لقسوته واضعف الاسباب واوهاها انه تغزل في اخت عمرو بن هند بينما كان ينادم عمرا واشرفت عليه اخته فنظر اليه عمرو نظرة صارمة اضمر فيها الشر له. يقول طرفة متغزلا في اخت الملك عمرو بن هند.

الاباء بي الظبي الذي يبرق شنفاه
ولولا الملك القاعد قد الثمني فاه(١٩)

ونحن ننكر ذلك لاسباب منها ان طرفة لايجرأ على ذلك في مجلس الملك وهو معروف في قسوته وخشية العرب منه وكان لايضحك او يبتسم، فكيف يتغزل طرفة باخته في مجلسه؟!!. هذا بالاضافة الى ان البيتين ضعيفا التركيب بعيدان كل البعد عن شعر طرفة المتماسك القوي، كما ان طرفة لم يكن شاعرا غزليا فقد تغزل غزلا عابرا بعدة فتيات هن (خولة، هر، ليل، هند، سلمى، الرباب) ولم يتغزل بغيرهن وكان يذكر في غزله محل اقامة كل واحدة منهن، ولو كان قد تغزل فعلا

باخت الملك لقال فيها غزلا لايليق بمقامها واثرها في نفسه كما فعل مع الاخريات، اما السبب الثاني – وهو الوجيه عدنا – ان طرفة خرج مع عمرو بن امامة وهو عمرو بن المنذر اخو العمرو بن هند لامه، وكان عمرو بن هند قد قاطعه فقال فيه:

الا ابن امك مابدا ولك الخورنق والسدير

فلا منعن الضمـ ـران اذا منع القصور

بكتاب تردي كما تردى الى الجيف النسور

اني بني العلات تقـ ـضي دون شاهدها الامور

ثم لحق باليمن وتبعه ناس من قيس عيلان وغيرهم، وسار معه طرفة بن العبد، وكان طرفة خلف ابلا في جوار قابوس وعمرو بن قيس بن مسعود بن عامر بن عمرو بن ابي ربيعة فلما قدم عمرو بن امامة على الملك اليماني ساله ان يبعث معه جندا يقاتل به اخاع عن نصيبه من ملك ابيه، قال له: اختر من احببت، فاختار مرادا فسرحهم معه فاقبل حتى نزل بهم واديا يقال له (قضيب) من ارض قيس عيلان، فتلاومت مراد بينها... وثاروا اليه، فقام عمرو وثار الى سيفه فخرج عليهم... ولقبه غلام يقال له (جعبد بن الحارث المرادي) ضربه فقتله(٢٠).

فقال طرفة بن العبد قصيدة يحرض فيها الملك عمرو بن هند على مراد لقتلهم اخاه عمرو بن امامة، يقول فيها:

أعمرو بن هند ماترى رأي معشر أماتوا ابا حسان جارا مجاورا

فان مرادا قد اصابوا جريمة جبارا واضحى جمعهم لك واترا

دعا دعوة ان تنكت النبل صدره امامة واستعدى هناك معاشرا

****

فلا يمنعنك بعدهم ان تنالهم وكنف معدا غزوهم والاباعرا

ولاتشربن الخمر ان لم تزرهم جماهير خيل يتبعن جماهرا (٢١)

وعندما ذهب طرفة في معية عمرو بن امامة اودع اباه في جوار قابوس وعمرو ابني المنذر ورجل من النمر اسمه (بشر بن قيس)، فبعث عمرو بن هند الى ابل طرفة واخذها فقال طرفة:

لعمرك ماكانت حمولة معبد على جدها حوبا لدينك من مضر

****

اعمر بن هند ماترى رأي صرمة لها شنب ترعى به الماء والشجر

وكان لها جارات قابوس منهما حذارا ولم استرعها الشمس والقمر

وعمرو بن هند كان ممن اجاروها　　وبعض الجوار المستفات به غررو
ومن يك ذا جار يرجى وقاؤه　　فما رأي اوفى ذمة وهما ابر
ساحل عنا صحن سم فابتغى　　به جيرتي ان لم يجلوا لي الخمر
رأيت القوافي يتجلن موالجا　　تضفى عنها ان تولجها الابر [٢٢]

وجعل الملك عمرو بن الهند طرفة المتلمس في صحبة اخيه قابوس، وكان يرشحه للملك من بعده وأمرهما بلزومه وكان قابوس يحب اللهو والصيد فيتبعانه في لهوه وصيده حتى يرجعا في الغشية وقد لعبا فيتفقان ببابه النهار كله ولم يصلا اليه فضجر طرفة[٢٣] وهجا عمرا واخاه بقوله:

فليت لنا مكان الملك عمرو　　رغوثا حول قبتنا تخور
من الزمراق اسبل قادماها　　وضرتها مركنة درور
يشاركنا لنا رحلان فيها　　وتعلوها الكباش فما تنور
لعمرك ان قابوس بن هند　　ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمني الرخي　　كذالك الحكم يقصد اويحور
لنا يوم ولكم وان يوم　　تطير البائسات ومانظر
فاما يومهن فيوم نحس　　تطاردهن بالحدب القصور
واما يومنا فنظل ركبا　　وقوفا نحل ومانسير [٢٤]

وهجا بني المنذر بن عمرو قائلا:

من الشر والتبريح اولاد معشر　　كثير ولا يعطونا في حادث بكرا
هم حرمل اعيا على كل اكل　　مبارا ولو امسى سوامهم دثرا
جماد بها البسباس يرهط معزها　　بنات اللبون والسلاقمة الحمرا
فما ذنبنا في ان اداءات خصاكم　　وان كنتم في قومكم معشرا ادرا
اذا جلسوا خيلت تحت ثيابهم　　خراف توفى بالضغيب لها نذرا
ابا كرب ابلغ لديك رسالة　　ابا جابر عني ولاتدعن عمرا
هم سود واروحو تزود في استه　　من الماء خال الطير واردة عشرا

ولعل اشد مااغضب الملك عمرو بن هند من طرفة قوله في اخر القصيدة انفة الذكر:

فلما انخت الى مليك　　مساكنه الخورنق والسدير
لينجز لي مواعد كاذبات　　بطيء صحيفة فيها غرور

فاوعدني فاخلف ثم ظني وبئس خليقة الملك الفجور [٢٦]

مما اوغر قلب الملك عمرو بن هند عليه، وحاول ان يصلح طرفة الامر بينه وبين الملك فاعتذر اليه بقصيدة يقول فيها:

اصرمت حبل الوصل ام صرموا ياصاح بل صرن الحبال هم
ان اللئام كذاك خلقهم كانوا اذا اخيتهم سئموا
اني وجدك ماهجرتك والـ انصاب يسفح بينهن دم
ولقد هممت بذاك اذ حبست وامر دون عبيدة الوذم
اخشى عقابك ان قدرت ولم اعذر فيؤثر بيننا الكلم [٢٧]

ولكن ذلك لم يجد فتيلا فقد كان ان عم طرفة عمر بن بشر بن مرشد مقربا من الملك، وكان على عداوة مع طرفة بسبب نزاع على ابل بينهما، وقد هجا طرفة فاوقد غله ومضى يحرض الملك للنيل من طرفة، وفيه يقول طرفة:

فيا عجبا من عبد عمرو وبغيه لقد رام ظلمي عبد عمرو فانعما
ولاخير فيه غير ان له غنى وان له كشحا اذا اقام اهضما
يظل نساء الحي يعكفن حوله يقاف عسيب من سرارة ملهما
له شربتان في النهار واربع من الليل حتى اخا سخدا مورما
ويشرب حتى يغمر المحض قلبه وان اعطه اجعل لقلبي مجثما
كأن السلاح فوق شعبة بانه ترى نفجا ورد الاسرة اسحما [٢٨]

ويبدو من شعر طرفة انه كان شديد الفقر ومع ذلك كان مسرفا يحب ان يتجرع قطرات الحياة حتى الثمالة كما احب الخمر واسرف في شربها واتلف ماله في شربها وعانى من ظلم الاهل والعشيرة الشيء الكثير ولاسيما من أبناء عمومته فاكثر من حديثه عن عاقبة الظلم[٢٩]، وكان اشدهم عليه ابن عمه (مالكا) الذي وصلت بينهما القرابة الى طريق مسدود، وقد لامه اهله وعشيرته على اسرافه حتى احس معهم بالاغتراب، وراح يسعى للحصول على المال والنوال عند الملك عمرو بن هند، ويقول في كل هذه الامور الملتصقة بجوهر حياته:

وماتنظرون بحق وردة فيكم صغر البنون ورهط وردة غيب
قد يبعث الامر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصبب
والظلم فرق بين حيي وائل بكر تساقيها المنايا تغلب

قد يورد الظلم المبين اجنا ملحا يخالط بالذعاف ويقشب
وقراف من لايستطيع دعارة يعدي كما يعدي الصحيح الاجرب
والاثم داء ليس يرجى برؤه والبر برء ليس فيه معطب
والصدق يألفه اللبيب المرتجى والكذب يألفه الدنى الاخيب
ولقد بدا لي انه سيغولني ماغال عادا والقرون فاشعبوا
ادوا الحقوق تغر لكم اعراضكم ان الكريم اذا يجرب يغضب (٣٠)

وقوله:

ارى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وماتنقص الايام والدهر ينفد
فمالي اراني وابن عمي مالكا متى ادن منه ينأ عني ويبعد
يلوم ومادري علام يلومني كما لامني في الحي قرط بن اعبد
واياسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه على رمس ملحد
على غير شيء قلته غير انني نشدت فلم اغفل حمولة معبد
وقربت بالقربى وجدك انني متى يك عهد للنكيثة اشهد
وان ادع للجلى اكم من حماتها وان ياتك الاعداء بالجهد اجهد
وان يقذف بالقذع عرضك اسقهم بشرب حياض الموت قبل التهدد
بلا حدث احدثته وكمحدث هجاني وقذفي بالشكاة ومطردي
فلو كان مولاي امرءا هو غيره لفرج كربي او لانظر في غدي
ولكن مولاي امرؤ هو خانقي على الشكر والتسال او انا مفتد
وظلم ذوي القربى اشد مضاضة على المرء من وقع الحسام الهند
فذرني وعرض انني لك شاكر ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد
فاصبحت ذا مال كثير وعادني بنون كرام شادة لمسود (٣١)

وقوله:

فذر في اروي هامتي في حياتها مخاف شرب في الممات مصرد
كرهم يروي نفسه في حياتي ستعلم ان متنا إذا اينا الصدى
ارى قبرا نحام بخيل بماله كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثونين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
ارى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى — لكا لطول المرضى وثنيا باليد
متى مايشأ يوما يقده لحتفه — ومن يك في حبل المنية ينقد

****

الا ايهذا الزاجر احضر الوغى — وان اشهد اللذات هل انت مخلدي
فان كنت لاتستطيع دفع منيتي — فذرني ابادرها بما ملكت يدي
فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى — وجدك لم احفل متى قام عودي
فمنهن سبق العاذلات بشربة — كميت متى ماتصل بالماء تزود
وكري اذا نادى المضاف مجنبا — كسيد الغضى نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب — ببهكنة تحت الطراف المعمد (٣٢)

ولم يسرف في ماله فقط بل اسرف من اموال اقاربه وتمادى في اسرافه حتى طردته عشيرته:

فمرة كهاة ذات خيف جلالة — عقيلة شيخ كالوبيل يلندد
يقول وقد وتر الوظيف وساقها — الا ترى ان قد اتيت بمؤيد
وقال الا ماذا ترون لشارب — شديد عليكم بغيه متعمد
فقال ذروه انما نفعها له — والا تكفوا قاص البرك يزدد

****

ومازال تشاربي الخمور ولذتي — وبغيي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى ان تحامتني العشيرة كلها — وافردت افراد البعير المعبد(٣٣)

ودفعه ذلك الى السير في البلاد على صغر سنه واحس بوحشة الغربة والمها حتى انه صور الغريب كالميت:

ومازال شربي الراح حتى اشرني — صديقي وحتى ساءتي بعض ذلك
وحتى يقول الاقربون نصاحة — ذر الجهل واصرم حبلها من حبالك
ولاغرو الا جارتي وسؤالها — الا هل لنا اهل سئلت كذلك
تعيرني جوب البلاد ورحلتي — الا رب دار لي سوى حر دارك
وليس امرؤ افنى الشباب مجاورا — سوى حية الا كأخر هالك (٣٤)

ودفعة الم الغربة والعودة الى العشيرة مستغفرا نادما على اسرافه وتبذيره:

ولقد كنت عليكم عاتبا — فعقيم بذنوب غير مر

كنت فيكم كالمغطى رأسه فاتجاء اليوم قناعي وخمر
سادرا احسب غيي رشدا فتناهيت وقد صابت بقر [٣٥]

وقد دخل طرفة في صراعات عدة دفاعا عن حقوقه وحقوق اخيه بالاضافة الى صراعاته مع اولاد عمه وعشيرته ومنها صراعه مع (حنانة الحاجب) في شأن ابن اخيه، وكانت بشبكة امريء القيس فوثب حنانة ليضرب فانتزع طرفة سيفه وقال:

لقيت باسفل ذي جاسم حنانة كالجمل الاورق
وأهوى بأبيض ذي غلة خشيب يريد به مفرقي
فساورته واستلبت الخشيـ ـب واعجل يثبه ريقي
فلما ابتدر ناكبا محمر وكنا على البعد ذا مصدق
فلو كان سيفي لغادرته صريعا على الجنب والمرفق
ولكنه سيفكم فاتقى محارمكم والمنايا تقى
نعاني حنانة طوبالة تسف ايبسا من العشرق
فنفسك قانع ولاتتعني وداو الكلوم ولا تبرق [٣٦]

ودفع حب المال طرفة الى التوجه للملك عمرو بن هند يطلب عطاءه وفضله بعد ان اعتذر له وامنه واصطحبه خاله المتلمس وكان هو الاخر قد هجى الملك عمرو فكتب الى عامله على البحرين وهجر (ربيعة بن الحارث العبدي) وطلب اليهما ان يتوجها الى عامله ليقبضا جائزتهما، فلما هبطا النجف فشك المتلمس بالرسالة التي يحملها لما يعرفه من شر الملك وحقده، ورفض طرفة فتح الرسالة، فتوجه المتلمس الى عبادي من غلمان الحيرة فرأ له الصحيفة ووجد فيها امر الملك عامله بقتل المتلمس، فاسرع المتلمس في اثر طرفة فلم يدركه، والقى الصحيفة في نهر الحيرة وخرج هاربا، وقال المتلمس عند ذلك:

ألقيتها بالثني من جنب كافر كذلك اقنوا كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رايتها يجول بها التيار في كل جدول

سار طرفة وقدم عامل البحرين وهو يهجر فدفع اليه كتاب الملك عمرو بن هند فاخبره العامل بان الملك يطلب اليه قتله، وطلب منه العامل بان يهرب من ليلته قبل علم الناس بالامر، فرفض طرفة الهرب ضانا بان العامل يطمع بجائزته فلما اصبح الصباح امر العامل بسجن طرفة رفض قتله، وكتب بذلك الى الملك فارسل الملك عامله الجديد ويدعى (عبد هند بن جرد) وامره الملك بقتل طرفة وربيعة بن الحارث العبدي، وانتدب رجلا يقال له (ابو ريشة) فقتله وقبه.

قال طرفة وهو في طريقه الى عامل البحرين وقد اعترضه ظباء وعقاب فزجرهما وقال:

لعمري لقد مرت عواطس جمة   ومر قبيل الصبح ظبي مصمع
وعجزاء دفت بالنجاح كانها   مع الصبح شيخ في بجاد مقنع
فلم تمنعي رزقا لعبد يريده   وهل يعدون بؤساك مايتوقع [٣٧]

وقال عند ايداعه السجن لائما قومه على عدم نصرتهم له:

ابلغ سراة بني بكر مغلغلة   فجدح الله من اذانها اليمنا
عنيت ثعلبة العجلي مالكة   عند الحوادث اذا الى واذ غبنا
والمرء قيسا يرى نواجه بعثث   تبكي لميت ولاتبكي به شجنا
وهاننا هاننا في الحي مومسة   خاطت سخابا وناطت فوقه ثكنا
مادافعوا فيرى فيهم مكانهم   ولاسمعنا لها من ذكرها حسنا [٣٨]

كما وصف طرفة حاله في السجن في قصيدته التي مطلعها:

الا اعتزلتيني اليوم خولة اوغضبي   قد نزلت حدباء محكمة العض
ازالت فؤادي من مقر مكانه   فاضحى جناحي اليوم ليس بذي نهض
وقد كنت جلدا في الحياة مرزءا   وقد كنا لباس الرجال على بغض
واني لحلو للخليل وانني   لمر لذي الاضغان ابدي له بغضي

****

لاكرم نفسي ان ارى متخشعا   لذي منة يعطي القليل على رخص

****

اذا مت فابكيني بما انا اهله   وحصي علي الباكيات مدى الحض
ولاتعدليني ان هلكت بعاجز   من الناس منقوض المريرة والنقض

****

فحسبي من الداء الذي ليس باخي   وبعض هموم لم يكد وجدها يفضي
الم ترى ان العين فاضت سجامها   من الدمع حتى لم يكد جفنها يغضي
كأن مجاج السنبل الورث فيهما   اذاعت به الارواح في ورق الحمض

****

خذوا حذركم اهل المشقر والصفا بني عما والقرض تجزوه بالقرض
الا ابلغا بكرا الطرف بن وائل بكأس سقى النصري شاربها رمض
فان يقتل النعمان قومي فانما هي الميتة الأولى وتقدمه القبض
فميلوا الى النعمان والحرب ميلة وكعب بن زيد فاشغلوه عن المحض
هما اورداني الموت عمدا وجردا على الموت خيلا ماتمل من الركض
رديت ونجى اليشكري حداره وحاد كما حاد البعير عن الدحض
ولقد خفت هذا الفتك في الدين دافعت بنو مالك حتى تردوا الذي يقضي
فيا عجبا للجذع ارفع فوقه وللصلب حظي من عداة ومن فرضي

****

فلست على الاحياء حيا مملكا ولست على الاموات في نكتة الارض
يقال ابيت اللعن واللعن حظه وسوف ابيت الخير تعرف بالحبض
فاقسمن عند النصب اني لميت بمتلفة ليست بغبط ولا خفض
وتصيحك الغلباء تغلب غارة هنالك لاينجيك عرض من العرض

****

تميل على العبدي في جو ارضه وعوف بن عمر تجترمه عن المحض[٣٩]

وقد استمد الباحثون من معاني هذه القصيدة الرواية القائلة بان عامل البحرين للملك عمرو بن هند خبر طرفة بالطريقة التي يريدها كنهاية له، فاقترح عليه طرفة ان يفصد عرق ساعده ويدعه ينزف وهو يحتسي الخمر حتى يموت وقد لبى له العامل طلبه، ومات طرفة بهذه الطريقة الاسطورية، وقد ذكر الاب شيخو طرفة ضمن شعراء النصرانية[٤٠]. ونحن لانذهب الى هذا الرأي فقد ابان طرفة عن معتقده من خلال شعره بانه لايقر بالخلود ولا بالحساب، وان الحياة متعة قصيرة تنتهي بالموت، وانه كان وثنيا يؤمن بالارباب كما لمسنا في هذه القصيدة وفي شعره الاخر.

٢- الاصالة والتمرد في شخصية طرفة:

تتمثل قيمة كل ابداع في صدق تعبيره عن الواقع، وتتمثل اصالة كل شاعر في تقمصه لكل نوازع عصره سواء منها المعلنة او المكبوتة، لان الشعر ماهو الا ترجمة شعورية لكل صيحات الفرح والالم التي تصدر من افواه الجماعة بل هو تعبير عن كل انين خافت وعن كل خلق مستتر،

وتتوحد فيه المتناقضات الى درجة الانصهار فيختلط في الشعر الفرح بالحزن، وينشأ الامل باليأس وتمتزج الحياة بالعدم، لان المقارنات اللغوية – كما يرى كارل فسلر– ليست على الاطلاق حركات منطقية للتفكر بل انها خلق الشاعر حيث تتصادم الاشياء لا لانها تختلف فيما بينها اوتتحد بل لانها تتجمع في الشعور والفكر في وحدة عاطفية[٤١].

ان التعارض بين الذاتي والموضوعي لايشكل عقبة في طريق الاصالة الاجتماعية للشاعر بل ينميها عن طريق رد الفعل النفسي الذي يتصرف في الابداع، والاغراق في الذاتية الذي تلمسه في شعر طرفة، ونزعه التمرد لديه تعبران عن صدق انتمائه والتحامه بالواقع، فقد نشأ تفرده عن عمق حساسيته وشدة غوصه في بيئته الطبيعية والاجتماعية مما جعله معبرا اصيلا عن الفترة الجاهلية في استلابها الواقعي وفي تعويضها الخيالي وتطلعاتها النفسية، فعبر عن عصره بخلجاته النفسية وتمرده الحياتي اذ ان شعره انعكاسا واضحا لكل جزئيات عصره لان ذاته بكل دقائقها من صنع المجتمع بتركيته الطبقية وباخلاقيته القبلية وبعمقه الحضاري.

نجد في شعر طرفة امتلاء حياتيا واخر ماورائيا، تمثل الأول في عمق احساسه بالظلم الاجتماعي المسلط عليه من قبل الاخرين لانه نشأ يتيما وعانى من ظلم اعمامه واولادهم لانهم ابو ان يقسموا ماله وظلموا امه [٤٢] واثرت هذه النشأة المأساوية في حياته وانضجت ادراكه فاحتك مبكرا بسلبية الحياة وبدأ الصراع منذ طفولته:

ماتنظرون بحق وردة فيكم   صغر البنون ورهط وردة غيب

قد يبعث الامر العظيم صغيره   حتى تظل له الدماء تصبب [٤٣]

وهذا الصراع المبكر له اثر ايجابي في شخصية طرفة خلافا لما يرى ايليا حاوي من " ان نشأة طرفة في احضان امه تدلل وتؤثره اضعف من شخصيته ودفع به الى الناحية السلبية من الحياة"[٤٤] والحقيقة ان هذه النشأة لم تكن نشأة دلال بل كانت ظلم وغص محبوسة صرفها الشاعر برغم يفاعته في شعره، وخاصة عندما جاءه الظلم من طرف اهله واقربائه، ولو كان هذا الظلم من الغرباء الى حد السيف:

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند [٤٥]

وقد عمق هذا الحدث ازمة الشاعر لاهمية الرابطة الاسرية في المجتمع الجاهلي، فالاسرة هي الملجأ الوحيد للفرد من ازماته المادية والنفسية، وهي اهم تكتل انساني بدائي قائم على الرابطة الدموية، وولدت هذه النشأة المأساوية الروح الصدامية في شخصية طرفة وطبعتها بطابع التحدي والجرأة كما نجد ذلك في شعره، كما عانى طرفة من الانسحاق الطبقي سواء في نشأته الفقيرة ام في

شبابه المسرف لذلك لم ينشأ تواصل عميق بينه وبين المال بل بقي المال وسيلة ينفقها على ملذاته مع اصدقائه فيملكه يوما ويفقده في يوم اخر.

وقد توحدت هذه الانلاقة الفردية المأساوية مع البيئة السلبية، فأنشأت شخصية متمردة تحاول تحطيم الاغلال التي تكبلها عبر الصوت الشعري " لان الفنان يحاول بعمله الفني ان يصل الى الامتلاء، وان يتجاوز الحدود التي يفرضها على استلاب الاجتماعي، وان يعبر عن كلية تظاهرات الحياة في شروط تاريخية معينة لايملك البداهة ان يلغيها"[٤٦].

ورد فعل الانسان تجاه الاستلاب الواقعي تكون بحسب عمق تمثله لذلك الاستلاب. وهنا تكم ميزة شخصية طرفة، لان ردة فعله تجاه الخمرة والمرأة لم تحتل مكان البديل في شخصيته بل كانتا موضع هروب مؤقت لانهما لم يمثلا غير جزء يسير من جزيئات حياته ولا يمكن الجزء ان يعوض عن الكل، واثرت ردة فعله في عمق انطلاقة وعيه اذ انطلق من الوعي وماقبله، من الحاضر والماضي الى المستقبل فهو متمرد، يمس الجرح النفار في النفس البشرية: الازمة الوجودية، لانه يعبر عن تشقق الكينونة، انه يتحسس لا معقولية العالم تحسسا وجدانيا لا فلسفيا[٤٧] ومثلت تجربته الوجه العميق لظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي التي مثلت تيار التمرد على النمط الاقتصادي وحاولوا تشكيل لحمة الرفض المضادة للمواصفات الطبقية عبر التحدي الفردي الا انهم ظلوا اسيري الرفض المادي لذلك يخلو شعرهم من التمرد الاخلاقي بل نلمس لديهم ترسيخا للاخلاق القبلية المثالية عن طريق اعلاء الخصال الاجتماعية المتمثلة بالفتوة لجعلها بديلا خياليا عن الواقع.

ومن العسير تقويض البنية الاقتصادية في مجتمع ما، مالم تقوض البنى الاخرى التي تستمد ركائزها من القاعدة الاقتصادية " لان سائر التشكيلات الميثيولوجية التي تحيط بوعي الانسان وتحجب النور عنه وتمنعه من فهم وضعه بوضوح هي مقدمات تغيير هذا الوضع، وتصبح قابلة للانحلال وتدرك على انها من انتاج الانسان نفسه"[٤٨] وان لم يع طرفة هذه التداخلات بين بنى المجتمع الا انه احسها وحاول تمثلها فكان تمرده ماديا واخلاقيا وعقائديا لانه ربط ازمته الحياتية بازمة الوجود الانساني ككل وكانت شخصيته " طليعة جيل جديد بدأ يتحدى من الذات القديمة المكبلة بالتقاليد والمشبعة بروح العادات... ويفتش عن ذات جديدة، عن مثل جديدة... وهذه هي الوجهة الثورية الوجودية الوجدانية في نفسيته"[٤٩] فجاء شعره امتلاء قابل به الخواء الذي يبتلع الذات الانسانية التي تطورت عبر الزمن وفاضت عن بيئتها وعن موضوعها لان الموضوع ظل جامدا ولم يعد صالحا لايواء الذات المتنامية فتصادمت حركة الذات مع سكون الموضوع، واحتد الصراع بين النقيضين بين (الحسي والتجريدي) و (الجزئي والكلي) وكان شعر طرفة محاولة لزعزعة العالم

المادي المتزمت واعادة خلقه بصياغته صياغة جديدة بواسطة الخيال الابداعي وشعر ملتحم بشخصيته وبعصره فجاء صادقا معبرا عن نفسه.

ويبدو ان القدماء احسوا باصالة الشاعر وصدق تجربته الشعورية فاولوه مكانة مهمة فوضعه (الاخطل) في المرتبة الثانية بعد الاعشى،ووضعه (لبيد) في المرتبة الثانية بعد امرىء القيس[٥٠]،ووضعه صاحب الجمهرة في الطبقة الثانية. وأورده ابن سلام في الطبقة الرابعة لقلة شعره[٥١].ويظهر هذا الاحساس في التسميات التعاطفية التي اسبغوها عليه فسموه (الفتى القتيل) و(ابن العشرين) وقال عنه ابن قتيبة " كان احدث الشعراء سنا واقلهم عمرا قتل وهو ابن العشرين وهو اجودهم طويلة"[٥٢].

لقد ادرك المحدثون قيمة شعر طرفة وعمق التجربة الماساوية التي ينقلها الا ان الدراسات عنه لم تتكامل بل قيلت فيه اراء عرضية، ويبتدر بعض الدارسين هذا الاهمال بقوله" ان شعر طرفة لاينطوي على لحمة او مذهب متلاحق وانما لديه سوانح وخطرات"[٥٣]. ونحن نرى خلاف هذه الرؤية وان شعر طرفة بناء نفسي متكامل وماتلك السوانح والخطرات التي اشار اليها ايليا حاوي الا امتداد لمجمل المسار الداخلي في نفسية الشاعر. وسنحاول الوصول الى الرموز الخفية التي ولدت لدينا هذه السوانح وتلك الخطرات.

يرى بعض الدارسين ان الابيات الوجودية قليلة في شعره، وتبدو وحيدة ومغايرة لبقية الشعر الذي ينحو فيه طرفة منحى الشعراء الجاهلين الاخرين مثل وصف الناقة[٥٤]. ولكن التعامل مع الابداع لا يكون بالاحصاء العددي لان الكمية لاتعني شيئا امام العمق النوعي، فالاحساس بالقلق والاغتراب لايقتصر على الابيات الواضحة بل يتعداها الى كامل شعره حيث يتجسد مذهبه الحياتي من خلال الرمز النفسي ويتجسد بوضوح في تعامله مع محيطه في الطللي الذي شكل " توليفا اندماغيا للحظات ثلاث هي: التهدم الحضاري، والقمع الجنسي، وقحل الطبيعة "[٥٥].

وتمثل مذهبه الحياتي في علاقته بالناقة التي مثلت البعد الميتافيزيقي لديه كما سنرى. وهي وسيلة هروب من الواقع وفي النفس كموطن تموضع حاول الشاعر التفاعل معه لذلك مثلت الناقة الرنز الاكثر ارتباطا بنفسيته. ومذهب طرفة يبدو في علاقته بالخمرة والمراة تلك العلاقة القسرية كمحاولة تعويض لا ترقى الى مستوى البديل عن سكونية الواقع، وهي محاولة عبثية فاشلة لاعطاء دفق حراري للحياة المتجمدة، كما نلمس مذهب الشاعر في البنية الشكلية لشعره سواء في تركيب الابيات داخل القصيدة الواحدة او في القافية الساكنة الطاغية على الديوان والمعبرة عن عمق

الشعور بالموت من خلال جدلية الحركة والسكون. وتثبت شخصية طرفة القلق والاضطراب متمثلا بقوله:

كريم يروي نفسه في حياته   ستعلم ان متنا غدا اين الصدى[٥٦]

٣- جحيم الاخرين:

علاقة طرفة بالمجتمع علاقة قطيعة وهو يصارع مع المجتمع البيئة الصحراوية، يتمرد على المجتمع لان الاخرين عمقوا ازمة الوجود التي احسها طرفة بل في احيان كثيرة اثار بسبب مواقفهم الصدامية معه لذلك لم يشكل الاخرون بديلا يلجأ اليه الشاعر من استلابه الذي يعاني منه. فكانت حياته تمردا على الواقع ومطالبة بالبديل " لان المتمرد يبحث عن اخلاق او عن مقدسات، والتمرد نسك وان لم يكن اعمى"[٥٧].

لقد ظل شعور طرفة حسيا بدائيا تعمق بالظرف السلبي الاجتماعي الذي بدأ طرفة فيه حياته، فصدم باليتم المبكر وبالظلم، فاصبحت امه لاتمثل حنانا ودفئا بقدر ماتمثل استلابا وقهرا مكبوتا لضعف مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي ولان اعمامه سلبوها حقها وتركوها وصغارها الفقر، ومنذ نعومة اظفاره احس بمرارة الظلم ولاسيما وان الظلم جاءه من ذوي قرباه، هذه النشأة الصدامية مع الاخرين الذين شكلوا عنصر استغلال مادي ومعنوي جعلته متفردا معتدا بنفسه شجاعا الى درجة التهور الحاد اللسان، لان القطيعة مع الاخرين توحد الفرد مع ذاته وتنشيء نوعا من التعالي تفرضه الثقة العالية بالنفس الى درجة اعلانها على الاخرين الذين يحاولون دائما اغراق الفرد في الجماعة.

ومن اهم ظواهر الاغتراب والقلق والتمسك بالاصالة الفردية ومحاولة الحفاظ على الحد الفاصل بينه كذات وبين الاخرين كمجموع، وحس الاغتراب والقلق الاول عند طرفة يتمثل في النضال ضد التيار العام الذي يحاول جرفه واماتة اختياره والغرق في مجرى الحياة العامة.

تعد ظاهرة تعارض الذات مع المجتمع اول الظواهر التي تثير التساؤلات الكامنة وتؤثر في مسار شخصية الفرد فتطبعها بالانهزامية او التلاشي او التحدي او الثورة او التمرد والموقفان المتعارضان اللذان يلخصان فلسفة الفن قديما وحديثا. والمتمثلان في موقف بعض الفنانين الذين يريدون ان ينسفوا وجودهم وفقا للوجود الخارجي وموقف الاخرين الذين يريدون ان ينسفوا الوجود الخارجي وفقا من مشاعرهم ووجدانهم"[٥٨]. وطرفة من النوع الثاني الذي يحاول اعادة صياغة بنية الوجود المادي واعادة تركيبه خياليا، وميزة الخلق والتحدي في شخصيته جعلت طرفة المتمرد ولم تجعل منه متشكيا او هاربا من ذاته.

ان لجوء طرفة للناقة (التطواف) يجعلها بديلا موضوعيا يفسر عمق القطيعة الاجتماعية ومردودها النفسي لدى الشاعر اذ ان كل تجاربه للتصالح مع المجتمع باءت بالفشل، قد يتصالح احيانا مع الجماد (الطلل) لانه يمثل الانسان الحي الفاعل بقدر ما يمثل ذكرى الانسان المجرد (الحبيبة) رمز (الانسان المثال) الذي يطمع طرفة في ايجاده كبديل لانسان الواقع الذي نخره القحط وابتلعه المحيط الساكن، فاصبح شيئا من اشياء الصحراء، والانسان الذي يواجهه طرفة هو ذلك الذي يمثل البخل والجشع:

اری قبر نحام بخیل بماله   كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما   صفائح صم من صفيح منضد(٥٩)

والانسان الذي يتدخل في شؤون طرفة الخاصة باسم العقيدة او القيم الاخلاقية:

- فان لاتستطع دفع منيتي   فدعني ابادرهما بما ملكت يدي
- الا أي هذا اللائمي احضر الوغى   وان اشهد اللذات هل انت مخلدي(٦٠)

ويواجه طرفة الانسان الذي يمثل تعميما لكل انسان حريص على المواصفات الاجتماعية لعصره، ويضعه طرفة وجها لوجه امام الواقع الذي يعيشه ووجوده ومعتقداته بلهجة المتمرد الماورائي " الذي هو حركة يثور بواسطتها الانسان ضد وضعه وضد الخلق كله، انه ماورائي لانه يذكر غايات الانسان والخلق"(٦١).

كريم يروي نفسه في حياته   ستعلم ان متنا غدا اينا التصدي(٦٢)

وسخر طرفة من الانسان الجاهلي الذي ينتظر ارتواء في حياة اخرى تعويضا عن عطشه الصحراوي المتنوع. ولايعد طرفة في هذا المجال ايبقوري النظرة لان الخمرة وكل لذات الحياة يتعاطاها هربا من عبء الاحساس بالاغتراب الذي يجثم على كيانه، فكانت متعته ذات نزعة سادية لانها ارتبطت بالفناء وتداخلت مع الالم الذي يبعثه الفناء القادم فكان فيها الامتزاج بين المتناقضات (متعة والم) و (متعة وفناء)فحتى الرابطة الغريزية بينه وبين اخيه وبينه وبين ابن عمه لم تستطع التوليف بين هذه الذوات المتنافرة لان ذات طرفة تخطت ذوات الاخرين كلما زادوا نأيا عنه:

فمالي اراني وابن عمي مالكا   متى ادل منه ينأ عني ويبعد(٦٣)

يلومه ابن عمه فيتسأل الشاعر عن سبب هذا اللوم والتقريع من الاخرين:

يلوم وما ادري علامة يلومني   كما لامني في الحي قرط ابن اعبد (٦٤)

ويعمق الاخرون ازمة الشاعر لا على الصعيد الاجتماعي الذي ينحصر في البيئة الضيقة (الاسرة والقبيلة) بل على صعيد اشمل عندما يشعر بجور الملك وظلمه المتواصل فيتشابك الاحساس الوجودي تجاه الاخرين بالوعي السياسي:

- لعمرك ان قابوس بن هند يخالط ملكه نوك كثير
- قسمت الدهر في زمن رخي كذاك الحكم يقصد او يجور[٦٥]

ولإيجابه طرفة افرادا بل تيارا جاهليا باسره:

الى ان تحامتني العشيرة كلها وافردت افراد البعير المعبد[٦٦]

وينبض شعر طرفة بالمأساة لان الجماعة رفضته وافردته لا كبعير وحسب بل كجيوان اجرب فيحاول طرفة على الرغم من ذلك صياغة اخلاقية المجتمع الفاسد فيعدد صفاته الانسانية من صدق وكرم وشجاعة، ويستغرب اساءة الجماعة له من غير ان يسيء لهم:

ولكن نفى عني الرجال جراءتي عليهم واقدامي وصدقي ومحتدي[٦٧]

وهو يحدد اخلاقية الانسان الذي يطمح الى وجوده:

خالط الناس بخلق واسع ولاتكن كلبا على الناس تهر[٦٨]

وعندما يضيق ذرعا بالاخرين يخاطبهم متوسلا طالبا منهم ان يدعوه وشأنه لانه لن يتنازل عن قيمة الذاتية وصفاته الشخصية حتى لو طردوه من بينهم.

فذرني وخلقي انني لك شاكر ولو حل بيتي نائيا عند ضرغد [٦٩]

وتتعمق تجربة طرفة في سجنه عندما تخلى عنه قومه واهله:

اسلمني قومي ولم يغضبوا لسوءة حلت بهم فادحة
كل خليل كنت خاللته لاترك الله له واضحة
كلهم اروغ من ثعلب ما اشبه الليلة بالبارحة [٧٠]

وتتعمق مأساة طرفة وهو في سجنه ووحدته، ويدرك اختلافي عن الاخرين وينتابه اليأس منهم ومن الحياة عامة فيخاطب ابنه قائلا:

فان مت فانعيني بما انا اهله وشقي على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلني كامرئ ليس همه كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي [٧١]

وقد مثلت الابيات الاخيرة شعوره بالانتحار المعنوي (الانتحار داخل الحياة بفقدان روابطه) ويصرح طرفة محاولا ترك اثار اغترابه وتمرده حتى بعد موته عبر الرؤية المستقبلية التي تنذر بالشؤم والوعيد للاخرين:

ستبدي لك الايام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود [٧٢]

ويمضي هذا المغترب تاركا وعيده بالصحراء التي قاضى عنها فلم تستطع احتضانه وللمجتمع الذي تجاوزه فلم يستطع مواكبته "يستثر (طرفة) فينا ماهو اكثر من الحزن انه الخوف المروع، وكذلك تبعث فينا ماينتجه هذا الخوف من رد فعل نبديه حياله... انه يسوقنا شطر الحافة ليدفع بنا هوة لاقرار لها، مما يضطرنا الى اتخاذ موقف صوفي او مجوني او معتدل من هذه الحقيقة" [٧٣].

وقد دفع القلق والاغتراب طرفة الى الاكثار من شعر الحكمة وضمت ثماني قصائد من ديوانه[٧٤] بالاضافة الى ابيات الحكمة المتناثرة في ثنايا قصائده الاخرى ولاسيما المعلقات وتتلخص حكمته: بان الايام مملوءة بالاخطاء وفيها الكثير من العجائب وف الناس كرام ولئام، وصحبة الكرام زينة وصحبة اهل السوء مهانة، ويجب ان تكون معاملة الناس بالحسنى، ومن عاب الناس عابوه، وان الخير خير دائما والشر شر، وبان الحصيف الرأي والتام العقل يستحق الثناء، ومن الواجب تهذيب الابناء خلقيا واجتماعيا، وبان المال عصب الحياة، وان الحياة والسخاء افضل مايتصف به الانسان.

واوضح طرفة خلقه من خلال حكمياته حيث بدأ كثير التجارب في الحياة على الرغم من صغر سنه. وانه كان ميالا الى الهدوء فدعا الى المعاملة بالحسنى. وقد كان شهما شجاعا، فارسا، وقد ورد تسعة وثمانون بيتا من شعره في الحياة والحكمة[٧٥]. وقد اتصل بحكمياته هذه فخره وهو كثير في ديوانه حيث يعتز باخلاقياته التي انبعث عنها حكمياته وقد افردت في سبع قصائد كاملة[٧٦] بالاضافة الى فخره المنبث في حنايا قصائده الاخرى ولاسيما المعلقة، وهي لاتخرج عن المثل التي صاغها في حكمياته.

لقد جاءت حكمياته وفخره كردة فعل عن احساسه بالقلق والاغتراب وشعوره بالظلم الذي وقع عليه وعلى امه وقد تضمنت سبع قصائد كاملة[٧٧] بالاضافة الى الابيات الاخرى المبثوثة في جل قصائده ولاسيما المعلقة، وقد شملت ستة عشر ومائة بيت في الديوان. وحدد مثله في الحياة وهي لاتتعدى ثلاثة: شرب الخمر، والاسراع الى جواد كريم لاغاثة الملهوف، والاستمتاع بالنساء "وبلغ به الحرص على انتهاز فرصة الحياة للتمتع بها، ان حث كل حي على الاخذ بنصيبه كاملا في هذه الدنيا" [٧٨].

ولم يقتصر في دعوته هذه على البشر فقط بل دعا قبره الى الاخذ بنصيبها من الحياة وتحت تأثير مفاهيمه هذه اسرف طرفة في ماله وتعداه الى مال عشيرته فكفى لوم اهله وافراد عشيرته له، ولكنه لم يقتنع برأيهم بل ناقشهم وجادلهم في اسلوب حياته، فتحدث الجفوة بينه وبينهم ويتركهم زمنا

طويلا ساعيا وراء المال والمتعة. واثار سلوكهم هذا في نفسه كوامن يتمه وظلم اعمامه له في صغره فتجسد في خذلان قومه له من ناحية وفشلهفي الحصول على الغنى من ناحية اخرى، فتضخم في خياله ظلم ذوي قرباه وعشيرته له فلجأ الى التهديد والوعيد وقد شمل ستة وثمانين بيتا من ديوانه وقال اربعة قصائد في الهجاء وجهها الى عمرو بن هند وعشيرته[٧٩]، وله في ذلك اثنتان وخمسون بيتا، والى عند عمرو بن بشر بن مرثد وخصه باربعة عشر بيتا، وحنانه بن الحاجب وخصه ببيتين، واعدائه الاخرين واعداء عشيرته وخصهم بثمانية عشر بيتا[٨٠]. وقد تحدثنا عن اسباب هذه العداوة فيما سبق من حديثنا عن حياته فلا داعي لتكرارها.

وجاء مديحه نابعا من مثله الخاصة كما فعل في مدح قتادة بن سلمى الحنفي يشكره على معروفه لقومه حين وفدوا اليه في سنة مجدبة فاحسن وفادتهم[٨١] اما مديحه الاخر فموجه الى الملك عمرو بن هند قبل ان تحدث القطيعة بينهما. وقد بلغت ابيات المديح في ديوانه ثلاثة وعشرين بيتا[٨٢].

اتصل شعر الاثارة بتيار حياته وملابساته حيث يثير الملك عمرو بن هند على الاخر بثأر اخيه عمرو بن امامة من قاتلي قبيلة مراد، اما الابيات الاخرى فتثير فيها عشيرته للانتقام من عمرو بن هند بعد ان سجنه واهدر دمه. وقد بلغ عدد ابيات الاثارة ثمانية عشر بيتا[٨٣] اما ابيات الاعتذار في شعره فهي تسعة فقط وجهها الى عمرو بن هند عندما بلغه بانه قد هجاه وبلغ طرفةبان الملك قد توعده، اما الابيات الستة الاخرى فيعتذر عن عدم حنانة بين الحاجب لانه لم يرد ان يقتله بسيفه (حنانة) بعد ان انتزعه منه وكأن سيف حنانة أبى ان يقتل صاحبه[٨٤].

٤- الموقف الطللي:

علاقة الانسان بالبيئة علاقة امومة واخصاب، لانها مجال حركة الانسان الأولى منها ينطلق واليها يعود في تفاعل جدلي. فينشأ تفاعل حيوي في اطار التوافق والانسجام او في اطار التصادم ومحاولة الانفلات " وادراك البيئة المحيطة بالانسان واتخاذ موقف منها يلعبان دورا رئيسيا في عمليات الابداع الفني ويساعدان على استمرار الحياة والمجتمع وهما موضع الوضع الانساني"[٨٥] فعلاقة الانسان بالبيئة ف العصر الجاهلي علاقة صراع وتصادم لان البيئة الصحراوية تكبل تطلعات الانسان وتسحق اماله وتؤطر امكاناته في اطارها الضيق

" ولعل اول انطباع تخلقه القصيدة الجاهلية على صفحة الوعي هو ان – جدلية الذات الصحراء – هي العلاقة التي تؤطر مجمل العلاقات وتصنع القيم لا الاجتماعية فحسب بل والادبية ايضا"[٨٦].

وقد طبعت مأساوية صراع الجاهلي مع البيئة الصحراوية الشعر بطابع لن يزول الا بزوال مؤثراته وبواعثه، والموقف الطللي الذي بدأ به الشاعر قصيدته هو كالاهة العميقة التي يطبقها المتحدث قبل بدء الحديث عن همومه الحياتية، والطلل هو الشحنة الأولى من عملية الابداع الشعري التي يكثف فيها الشاعر موقفه " لان عمليات الادراك تعبر عن مدى التاريخ عن موقف انساني معين ازاء البيئة والمجتمع"[٨٧].

تمثل الصحراء المكان لكنه مكان الاطلاق واللا تعيين مكان التشابه، فهي محيط من الرمال الساكن يتيه فيها الانسان لتشابه جزيئات تكوينها والظاهرة المكانية هي ظاهرة تنوع وامتلاء، ولكن الصحراء ظاهرة امتداد واخواء تعمق الكون المادي وتعكس سكونا نفسيا في الفرد الجاهلي، وقد جعلت مواصفات الصحراء من " اللحظة الطللية واحدة من الشذرات المضيئة التي يمكن ان نصل عبرها الى احباطات ومكبوتات المجتمع الجاهلي والى تطلعاته واشكال استلابه معا"[٨٨].

لعل ظاهرة الطلل المكانية استثارة نفسية يتمسك بها الشاعر ويجعلها مشجبا يطلق عليها خيالاته ووعاء يفرغ فيه مكبوتاته عن طريق الابداع الشعري لذلك مثل الطلل التحاما بالمكان واستنطاقا ماديا ونفسيا لمتاهات الصحراء وعمقها لان الطلل جزئية مادية بسيطة يطيل الشاعر البحث عنها، فكثيرا ماتطالها عملية الهدم الصحراوي فتغطي الرياح ماتبقى من اثارها، لكن الشاعر لن يستسلم امام قوى الهدم الطبيعية بل يطيل البحث عن ذلك الندب في وجه الصحراء الذي يدل على اثار حياة انسانية كابدة مشقة الوجود وفرضت نفسها على قحط الطبيعة:

لخولة اطلال ببرقة تمهد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد[٨٩]

ولو امعنا النظر في رموز هذ البيت من ارتباط الوشم بطقوس العرب ومعتقداتهم، والظاهر الذي يرمز الى ظواهر الاشياء وليس الى اعماقها البعيدة، واليد التي ترمز للعطاء كما ترمز للضرب، وبطنا هذا المطلع بابيات القصيدة ندرك على ان خولة واطلالها ليست غير رمز لمعتقدات قبيلته التي يشعر بانه ينصرف عنها بعد ان اكتشف معتقدا خاصا به يدعو الى التمتع بالحياة دون الالتفات الى معتقدات ومواضعات القبيلة، وعندما احست قبيلته بما يخالج نفسه بعد ان ظهر في سلوكه وتصرفاته تحامته العشيرة وافراد افراد البعير المعبد لانه امن بغير ما يؤمنون به وخرج على الجماعة. وهذا دفعه الى الرحيل على ظهر الناقة والابحار على متنها الى عالمه الخاص مغتربا عن العشيرة ومواضعاتها.

ان الطلل هو نقطة التكثيف الحسي بالاشياء الذي يبدو في تحمل الصراع مع البيئة التي تتصارع مع الانسان، ويواجه طرفة مصيره ويتحدى القهر الطبيعي والاجتماعي المسلط عليه. ولكنه

صراع غير متكافيء بين فرد وطبيعة ومجتمع من جهة اخرى، والموقف الطللي هو مجال الصراع الاساس فجاء " توليفا اندماغيا للحظات ثلاث هي: التهدم الحضاري، والقمع الجنسي، وقحل الطبيعة"[٩٠] وفيه يحاول الشاعر تحطيم أغلال التهدم والكبت بالتمرد الذي لم يكن سلبيا هروبيا بل مواجهة وتحديا على الصحراء التي تقهره بتراميها المكاني ومجتمعه الذي يحاول ان يذيب كيانه الانساني الفردي. وما الوشم الا علامة احتجاج على الصحراء كنقطة يعرف بها الشاعر اثار وجود إنساني، وعلامة احتجاج على مواضعات مجتمع يرفضها ويجد لها رؤية أخرى لايوافقه عليها مجتمعه.

ويعود طرفة للطلل بحثا عن اثار الوجود الانساني ومحاولة ابداعية لحسن صراعه مع الصحراء التي تمثل العدم بتراميها وبطمسها السريع لكل اثار الحياة اضافة الى كونها أسرا للفرد تكبله وليست اما تحتضنه، وهي تبتلع جسده عند الموت وتحاول ان تبتلع لحظاته العاطفية القليلة التي يتمناها، ويجسدها الطلل وتحاول ان تحيلها الى فناء بقوانينها المضادة.

يتميز طلل طرفة بالالتزام الدائم والصراع النفسي بين ماهو كائن وما يجب ان يكون، بين الذات المتطورة والموضوع الجامد فيختلط موقفه المتمرد بالرثاء:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجلد[٩١]

فالتحمت الذات المتكسرة والمرأة المحضورة والطبيعة الجامدة، وحددت كل هذه الاشياء وانصهرت في الموقف الطللي، ويوجه طرفة مأساته دائما وجهة انسانية لادخل فيها للقدر او الالهة، فتشخص عناصر قهره تشخيصا حيا وينفث همومه في مجال انساني لان دائرة الاحساس بالوجود هي الانسانية وما يرتبط بها، فهو يواجه مصيره كفرد ويلتزم بتلك المواجهة ولا بأس ان يشرك محبه في همومه لان المأساة انسانية عامة وان انطلق الشعور بها من لا وعي طرفة كشاعر ملهم اصيل فكان اللا شعور الفردي عنده معبرا عن اللا شعور الجماعي، وهو يحاول تغليب عنصر الحيوية المتجسدة في الانسان لا في الحيوان على عنصر الهدم الطبيعي والاجتماعي في الطلل لذلك عج طلله بالرموز الانسانية:

- (خولة، الوشم، ظاهر اليد).
- المكانين (برقة، ثمهد) اللذين يضعف الاحساس بوجودهما المكاني الجامد لانهما خرجا من الترامي الصحراوي عندما عينهما الشاعر بالاسماء فاصبحا رمزا للوجود الانساني الحي.
- (تلوح) لها دلالة حركية وفاعلية، والاطلال تلوح ذاتيا من دون ان يكتب عنها الشاعر.
- فعل (الوقوف) سكون اني بعد حركة.

- (الصحب) تكثيف للوجود الانساني ماديا ونفسيا عبر المشاركة.
- (المطي) عنصر حيواني لايقلل من محاولة انسنة الطلل لان وودها مرتبط بالوجود الانساني فهذه الحيوانات لن تكن طليقة، بل كانت موجودة في مكان الطلل لانها مطايا الشاعر وصحبه.

وزيادة على الادلة التكثيفية للمكان حمل دلالة الاخصاب في مواضع اخرى:

لخولة بالاجزاع من اضم طلل	وبالسفح من قو مقام ومحتمل
فلازال غيث من ربيع وصيف	على دارها حيث استقرت زحل
كأن الخلايا فيه خلت رباعها	وعوذ اذ ماهده رعده احتفل [٩٢]

ويتغلب في هذا الطلل عنصر الطبيعة على الكبت الجنسي، وهو يحاول اخصاب الطبيعة وازالة القحط منها، وهذا دليل على شدة معاناة الشاعر من جذب الصحراء.

حاول طرفة ان يجعل من الصحراء جنينا حيا ومكثفا في احشائها رمزا للخصب والوجود الانساني الحي في الحاضر وطموحا في المستقبل، زيادة على رمز الوجود الانساني في الماضي الذي ظل حيا في نفسية الشاعر، والرمز الذي يبعث شعورا معينا في الانسان هو جزء من كيانه العام لانه يبعث فيه دفقا شعوريا حيا يغذي حياته " لان الاشياء في البيئة الجاهلية حضورها امتلأ بحيث تحفر وجودها على صفحة الوعي حفرا"[٩٣].

وينطلق الشاعر من الاشياء كمادة ويعيد صياغتها وفق نسقه النفسي لذلك نجده " يفتت الاشياء الواقعة في المكان لكي يفقدها كل تماسكها البنائي الماثل امامنا ولايبقى منها الا صفاتها"[٩٤] محاولا الارتقاء بها الى مستوى التجريد عن طريق الرمز، وعن طريق طغيان الفعل الحركي والوجود الانساني على الجماد المادي، فهو يحاول نبذ الزمان لتكثيف المكان، لان الزمان ذو منزع تجريدي اضافة الى احساس الانسان بالتلاشي فيها والمكان اكثر ذاتية من الزمان[٩٥] لانه يمثل مادة الوعي الأولى، ويحاول طرفة التعبير من خلال المادة " فالمؤلف يحاول ان يصور تتابع الصور الذهنية في عقل البطل بدون تعليق او اختيار يذكر[٩٦].

يمثل المكان عند طرفة معلم الوجود الاوحد عند غياب كل تجريد خيالي اوفكري، وهو الذي يشكل خزانة الذاكرة ومخزون اللاشعور الذي تتدفق منه الصور الشعرية، كما يحاول طرفة تفكيك المكان (الطلل) واعادة صياغته ليطابق نسقه النفسي، والطلل الذي نجده في شعره لايمثل الواقع بقدر مايمثل رمز الواقع الذي انعكس في نفس الشاعر وترسب في لاشعوره ثم تدفق في شعره، فاصبح الرمز مثليا وانسانيا بعد ان كان طبيعيا ساكنا" وهنا تلتقي الفلسفة النفسية للصورة الشعرة بالتفسير النفسي، ونحن نقول ان الشاعر يشكل الصورة الشعرية ويستمد في تشكيله لها عناصر من

عينات ماثلة في المكان كأن يصنع بذلك نسقا خاصا للمكان لم يكن له من قبل... وان كانت حقيقة المكان في الشعر كحقيقة الزمان نفسية وليست موضوعية كان تشكيل الصورة نسقا للفكرة وليس للطبيعة" [٩٧].

ان الطلل هو بؤرة الاستلاب الحاضر دائما في ذهن الشاعر، ولعل هذا الصراع مع العدو المشخص هو الذي يسبغ على الاحساس بالوجود نوعا من القدسية والشرعية، فيتجدد شعور طرفة بوجوده في طريق الاحساس بعوامل ذلك الاستلاب ومقارعتها مقارعة نفسية وخيالة تؤجل الاحساس باليأس ولاجدوى الصراع، ولان هذا الصراع يضع حدودا فاصلة بين بني الفرد ككيان انساني وبين الجماد الذي يحاول ابتلاعه، والصراع مع الجمادوالجمود هو الذي يشعر طرفة بتميزه عن وجود الاشياء والاخرين وهو الذي يؤجل الشعور بالسأم والملل الذي ينتج عن اليأس من التغيير وعن التكرار الدائم الاحداث الحياة اليومية، وهذا النضال هو الذي اجل النهاية المأساوية على الرغم من انه دفع الى القلق والاغتراب.

ان افراد طرفة... هي شكل من عدم التنازل عن الذات واسراف في عشها، الذي يذكرنا فورا بحس الاغتراب لدى الشاعر، وهذا الاعجاب بالنفس الذي تفرضه شروط مجتمعه، لايمكن للشاعر الجاهلي الا من صب جهوده على شخصية واحدة هي شخصيته هو" [٩٨].

اما السبب الاخر في تأخير احساس طرفة بالياس هو انه يتعامل مع الجماد والجمود مراعيا الفصل بينه وبين المادة، فهو يتعامل مع الطلل تعاملا خاصا فهو يستوعب الطلل في نفسه ثم يبعثه من جديد، وما نلبث ان نجد في بعض قصائده صورة اخرى في تعامله مع الطلل فاورده بصيغ السؤال:

- اشجاك الربع أم قدمه　　　　أم رماد دارس حممه؟[٩٩]
- أتعرف رسم الدار قفرا منازله　　　　كجفني اليماني زخرف الوشي مائلة؟[١٠٠]

مما يدلل على تزعزع مكانة هذا الرمز في نفسه والتشكيك في قيمته بعد ان فشلت محاولة انسنته واخصابه، ثم تتطور ظاهرة التساؤل حول الطلل الى ظاهرة رفض له لان الاستفهام استنكاري وتساؤل طرفة مبعثة اليأس والاحساس بلا جدوى الطلل الذي جعله عنصرا للتحدي، تحدي الزمن وتحدي الطبيعة والتحدي الجمود في معتقد المجتمع، وموقف طرفة من هذا ذاتي لان البيئة ظلت جامدة والحياة راكدة وفشل محاولاته في اعادة صياغة اللبيئة وفق نسقها الخاص تلك المحاولات التي اكتست صيغة خلاقة وملتزمة تحولت الى موقف عدائي يائس من المجتمع والطبيعة فالاخرون بقوا يمثلون الجحيم وازدادت الصحراء قحطا وجدا، ولم يعد للحبيبة كيان الا في خيال الشاعر:

– أشجاك الربع أم قدمه   أم رماد دارس حممه؟[١٠١]

وهذا الطلل خلافا للطلل السابق لن نجد فيه اثار حياة انسانية بل أورده الشاعر كما هو في الواقع المادي بدون تواصل نفسي معه، فجاء جامدا فاقدا الحرارة رمادا دارسا، وعبر طرفة عن هذه القطيعة بوضع الطلل في اطاره المادي الحسي وكذلك في اطاره الزماني، فهو قديم بال زالت كل خصوصياته السابقة ففشل في قهر الزمن وخلق التغيير بسكونيته وفشل في قهر الصحراء ومواضعاتها الاجتماعية:

لعبت بعدي السيول به   وجرى في ريق رحمه[١٠٢]

وتعرض الطلل (الرمز) للهدم لانه " كلما ازداد المجتمع رفضا للانا تشبثت هذه الانا بذاتها، وازدادت تمركزا حول نفسها، وفي مثل هذه الحال يتفاقم التضاد بين الفرد والمجتمع وبذلك نواجه رفضا مزدوجا، رفض المجتمع لانسانية الفرد أي استلابه وتغريبه، ورفض الفرد للمجتمع بالمقابل"[١٠٣] ويئس طرفة من البحث عن الطلل (الرمز) الذي لم يعد يمثل شيئا في ذاته وكأنه وقف موقف المتشبث من ذلك الرمز الذي علق عليه اماله فجرفته قوى الهدم الطبيعية والاجتماعية والاخلاقية:

فغيرن آيات الديار مع البلى   وليس على ريب الزمان كفيل[١٠٤]

ويتغلب الزمان الذي يشكل مسرح المأساة خلافا لما يرى مصطفى ناصف عندما قال "يرى الشاعر الجاهلي في الزمان مادة تغيير. وير في الطلل ذلك الامس وهو مبدأ النمو"[١٠٥] والمصالحة مع الزمان غاية طرفة لكن هذا الطموح لم يتحقق فيتحول الزمان من مادة تغيير الى وعاء للجمود والى فناء مستمر. ولم يبد طرفة (صداقة نحو الزمن)[١٠٦] بل صعد الصراع معه بازالة الملول النفسي لرمز الطلل فتحول من رمز للحياة والخصب والتحدي الى جماد يائس ازالته الصحراء.

حاول طرفة ان يتعامل مع المكان لانه اكثر ذاتية من الزمان فتعامل معه تعاملا حسيا يقينا، اما الزمان فليس له بعد داخلي لانه ظاهرة تجريدية فأورده طرفة مطلقا لان الايام والسنين تتشابه وتتوالى ولا تحمل جديدا، فالزمن الخارجي يمثل العدم، اما الزمن الداخلي فقد مثل في البداوية محاولة الحياة الا ان تغلب الزمن الخارجي على الزمن الداخلي (الجمود على التغيير) جعل من الحس الزمني الذاتي شيئا نسبيا بل هو زمن ضائع، فكانت الحياة حدثا في مكان، والمكان هو بطل الاحداث الاول[١٠٧] وفقدت الحياة عنصر الزمن فاصبحت فعلا لا مجديا في زمن لامحدود، وهذه الواجهة المكانية الحسية جعلت من طرفة مغتربا متمردا " عندما تأل الشخصيات بعضها عن الوقت دون ان تحظى بجواب"[١٠٨].

٥- المرأة المثال:

لا تعدو ان تكون المرأة محطة قصيرة حاول الشاعر ان يجد فيها راحته المفقودة وغالبا ما ينصرف عنها ذاته لانه حاول ان يتخذ منها رمزا متعدد الابعاد لكنه فشل في ذلك لان الناقة ككيان حيواني تخضع خضوعا تاما لمشيئته سواء في واقعها ام في رمزها يوجهها حيث يشاء في اسفاره ويجزئها حسب هواه، ويثبت عمق تفاعل طرفة مع الناقة وسطحية تفاعله مع المرأة مابيناه سابقا من اغتراب اجتماعي تمثل في جحيم الاخرين واغراق في الذات حاول الشاعر اخضاع العالم الخارجي لعالمه الداخلي والمرأة ككيان حيوي انساني لها مجالها الخاص وهي لن تخضع لمحاولات الشاعر لذلك لن يستطيع تجزئتها واعادة خلقها من جديد ولذلك بقيت المرأة خارج ذات الشاعر طالما ما يذكرها لا كامرأة معينة بذاتها بل كرمز واحيانا كمثال بحث عنه الشاعر فتكون مع الاطلال رمزا مطلقا للكبت الجنسي لان المرأة من محظورات المجتمع الجاهلي:

لخولة اطلالة ببرقة ثهمد	تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفا بها صحبي على مطيهم	يقولون لا تهلك أسى وتجلد

عندما نمعن النظر في لفظه (الوشم) نجد لها دلالة على الاثر مما يثير في كوامن النفس ذكريات سابقة، والاثر يتفاعل مع المتلقي ويثير عنده الذكريات هو الاخر، فاذا ما اقترن الوشم بالطلل، يمكن لصورة الوشم ان تستثير فينا صورا ضبابية لها جذور في اللا شعور اهمها صور الماضي بايحاءاته واصداءه المتعددة، وربما المتكثرة ويقوم الوعي باسترجاعها عاطفيا لا ذهنيا وكل ماهو عاطفي يحمل السيولة والتمدد في ذاته ولكنه قلما ينجو من الاضفائية"[١٠٩].

واذا امعنا النظر في البيت الاول نجد ان الصورة الشعرية لعبت دورا كبيرا في الانفتاح والامل وتداعي الذكريات الحية فان لفظة (الطلل) تستدعي صورة (الوشم) وتمهد لتداعي الذكريات التي بدأت مع وقوف الصحب على الطلل، وبدأت الذكريات مع رحيل خولة في هودجها:

كأن حدوج المالكية غدوة	خلايا سفين بالتواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن	يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشقوا حباب الماء حيزومها بها	كما قسم الترب المغايل باليد[١١٠]

ولو حاولنا استنطاق الالفاظ (حدوج المالكية، غدوة، خلايا سفين، النواصف من دد، عدولية سفين ابن يامن، يجور، يهتدي) لرأينا اسماء بعينها:

- (حدوج المالكية): وهي هوادج النساء المنسوبة الى بني مالك من قبيلة كلب.

- (دد): اسم موضع وهو وادي او مسيل ماء باقترانه بالالفاظ بلفظه (النواصف) و (عدولية).
- (عدولية): نسبة الى عدولي وهي قرية في البحرين.
- (سفن ابن يامن): وقد شبه طرفة الهوادج بالسفينة.
- السفينة بحر في دد، والوادي يقترن عند الجاهليين بالسحر ويمتليء بالجن والشياطين: اذن لا تبحر السفينة في بحر المجهول، في بحر الميثيولوجيا.
- ولماذا (غدوة) اليس في اول النهار يكمن الأمل، ولكن مع هذا الامل يصطدم المجهول.
- والمجهول هنا (الربان) الذي يجور طورا ويهتدي.

فاذا انتقلنا الى البيت الثالث وجدنا صدر السفينة يشق امواج البحر كما يقسم الاطفال التراب عندما يلعبون لعبة (المغايل) وهذه اللعبة تعتمد على التخمين والحدس المرتبط بطاقة نفسية كبيرة لمعرفة (الخرس) في أي جزء من اقسام التراب الموزع باليد، الا ترتبط هذه اللعبة بالكشف عن الغيب والمجهول.

وخلاصة ما أوردناه ان خولة هنا ليست مجرد امراة، انها المثال الذي يسعى طرفة في الوصول اليه في رحلته عبر المجهول تلك الرحلة الشاقة الشبيهة برحلة اوديسيوس في الالياذة لهوميروس للبحث عن المجهول في العالم السفلي – عالم الاخرة وما وراء الطبيعة – انها رحلة كلكامش عن الخلود ومحاولة ايجاد اكسير الحياة في عالم الاموات، وما هو اكسير الحياة عند طرفة: انه الجديدة التي يسعى لتحقيقها في مجتمع يجد في مثله سكوناً وجموداً مدمرين

ولو امعنا النظر في الالفاظ لوجدنا الشاعر يلجا الى الالفاظ الخشنة الغربية الى جانب الالفاظ السهلة البسيطة، وهذه الثنائية اللغوية تعبر عن ثنائية الامل والقهر الكامنين في المجهول الذي يبحر فيه الشاعر، وقد اعطتنا عبارة (يجوز بها الملاح طورا ويهتدي) الفكرة المرادة، فهذا الشطرة يمثل بؤرة القصيدة في رحلة طرفة عبر المستقبل ليقارن بين المثل السائدة هذا الجانب واحادية الاخر من التركيبة، انها اذن لغة تعكس التناقص الاساسي في الحياة، ذلك التناقض الجاثم على نواة الروح وتسعى وراء التعالي على معوقات الدفق الحيوي للمشروع الانساني والكوني.

ان خولة المثال الذي يسعى اليه الشاعر في رحلته الطويلة الشاقة عبر المجهول تتحول في الابيات التالية الى امراة اخرى، امراة اشبه بالغزال " انه غزال استغنى عند ولد، كما استغنى الشاعر عن قومه، وهذه المراة (المراة / الغزال) قد تخلصت من كل الروابط الارضية وتطلعت الى عالم جديد ن وتزداد الصورة وضوحاً حين ندرك ان العلاقة التي ينشدها الشاعر ليست علاقة دم او قرابة او نسب وانما اصرة مبدا.

وفي الحي احوى ينفض المرد شادن   مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
خذول تراعي ربربا بخميلة   تناول اطراف البرير وترتدي
وتبسم عن المى كان منورا   تخلل حر الرمل دعص له ند
سقته اياة الشمس الاثاته   اسف ولم تكدم عليه باثند
ووجه كان الشمس حلت رداءها   عليه قي اللون لم يتخدد

يوضح الشاعر رؤيته في مجتمعه المثالي، انه مجتمع الحرية والانشراح والسعادة، انها الحياة في احضان الطبيعة، تلك الدعوة التي دعا اليها جان جاك روسو والرومانتيكيون بعد طرفة بألف سنة، ولكننا بالاضافة الى ذلك نجد ترابطا حميماً بين (المراة / الشمس) (المراة / الطبيعة) (الطبية / الام) (المراة /الاخصاب) (الشمس / الاله) وبالتالي (المراة/ الاخصاب / الاله) لقد ربط الشاعر بالبعد الميثيولوجي الجاهلي بين الالوهية التي توحيها الشمس وبين الظبية المطفلة والمراة المخصبة، فارتبط الجمال بالمثال والأمومة بالخصب.

ونستدل من استقرائنا للشعر الجاهلي ان تشبيه المراة بالغزالة ماخوذة من تشبيهها بالشمس لان الغزالة هي الشمس مما اعطاها صفة مثالية تقرب من الالوهية، ثم اختطلت صفة الغزالة بالحيوانات الاخرى كالمهارة والرئم، ويرنونها بالنبات للدلالة على الاخصاب كالنخلة الموسقة التي نضج ثمرها والمراعي الخصبة " ولم يقفوا عند تصوير هذا الجانب الالهي في المراة التي يرمزون بها المعبودة (شمس) وانما راحلوا في نصوص كثيرة يزاوجون بينها وبين صورة اخرى تفيض بوصف هذا الجانب الانثوي في المراة وما يتصل به من المعاني الحسية التي تعبر عن الشهوة واللذة.

ان ما يسعى اليه طرفة في عالمه الجديد هوان يسود النقاء العالم، وتسود الحرية الفردية والسعادة التامة والحب والصفاء والاخصاب لتحقيق عالم افضل ولكن البيت الاخير يبعث فينا نوعا من الاسى الشفيق في صورة الاصيل الذي يمثل انطفاء الشمس أي انطفاء التقديس والمثل العليا ويربطنا هذا الاسى بالاسى السابق عليه حيث الوقوف على الطلل وقول صحبه (لاتهلك اسى وتجلد) كما يربطنا بالمجهول وابحار السفينة في امواج الغيب (وادي دد) والمستقبل المبهم الذي (يجور فيه الربان طورا ويهتدي) و (قسم اترب الغايل باليد) ان البحث عن رموز هذه الصور وردها الى اصولها الميثيولوجية يعيننا على فهم النص فهما دقيقا فليس من شك في ان هؤلاء الشعراء قد احدثوا كثيرا من التحوير في هذه الاصول الميثيولوجية شانهم في تحوير ايه عناصر موضوعية اخرى كانوا يستعيرونها من الوقع المادي والموروث الحضاري ومثل هذا النوع من التحليل الميثيولوجي لصور الشعر القديم من التعقيد والغموض بحيث يحتاج الى معرفة واسعة وعميقة بحضارة الجاهليين

وثقافاتهم وفلسفتهم في الحياة والموت وتحديد دقيق لتلك الروافد الثقافية والدينية والميثيولوجية التي انتقلت اليهم من الحضارات المجاورة وسرعان ماينقطع طرفة عن المراة ويغوص في اعماق نفسه مباشرة سواء في الفخر الذي هو حالة اعلاء بالنسبة لتحامي العشيرة عنه وافراده افراد البعير المعبد (الغربة) او عدم انسجامه مع مواضعات القبيلة (الاغتراب) او في اقامة سيفه حصنا يفصل بينه وبين عدوانية الاخرين ومع ان هذا التحصن (بالسيف) يبدا صداميا في الظاهر فانه يخفي الانسحابية اخفاء كونيا كما يضمر خوفا عميقا من العلاقات الاجتماعية السائدة وهي على اية حال محاولة لاقناع الذات بانه قادر على التصدي للواقع او في رمز (الناقة) التي تلي (الطلل) مباشرة في المعلقة تعبر عن توزع الشاعر بين (المراة / الاله) و(الناقة/ السفينة) التي تقوده لاكتشاف المجهول، فالمثال قد ارتبط بالرحلة لاكتشاف الغيب، ولولا الناقة لبدا وجود خولة هامسياً، أي ان رحلة طرفة عبر المجهول لتحقيق المثال في خولة، وليس من اجل (خولة / المراة) حسب فاننا لا نجد في (خولة / المراة) الا اسمها او منسوبة الى هودجها (حودج المالكية) فالمراة لن تذكر الا كتوظيف رمزي وان ذكرت في ابيات مفردة فهي تذكر لغاية الصور التوظيفية او الرمز الذي يسعى اليه، اما المراة كواقع فتبدو قليلة التأثير في حياة طرفة على الرغم من قوة الغريزة في مثل سنه:

لخولة بالاجزاع من اضم طلل وبالفسح من قو مقام ومحتمل

فالمراة هنا على الرغم من انها معينة بالاسم (خولة) الا انها مطلقة قد تعبر عن رمز (المراة/ المثال) (المراة / الخصب) (المراة/ الام) الا اننا نلاحظ بان المكان يطغى ولم يبق لخولة الا الاسم بين الاماكن الجامدة (اضم، اجزاء، السفح) ونلاحظ تغليب عنصري القحط الطبيعي والاستلاب الحضاري على الكبت الجنسي:

اشجاك الربع ام قدمه ام رماد دارس حممه

وان سلمنا بان اسماء النساء الاتي ذكرهن في شعره:

- (خولة) وطلالها في (برقة ثهمد)
- (هر) وينزل اهلها في (يسر) وهو موضع قريب من اليمامة.
- (ليلى) وكانت خدودها في (ناصرة) وهي جبل او ماء لبنى عبس.
- (هند) واطلالها في (حزان الشريف).
- (سلمى) وديارها في (تثليث) او (نجران) ودراها في (اغدرة السيدان).

قد تعرف بهن وعاش معهن، فمن الصعب ان نقول انه قد احبهن او ملكن قلبه، وهو وان اسهب شيئاً ما في وصفه لخولة وهر الا انه اوجز كثيراً في وصفه لليلى وسلمى، وتعمد في اوصافه ان

لايعمم اوصافا عامة مشتركة فبدون مختلفات الواحدة عن الاخرى الا انهن في الحقيقة لايتعدَيْن العلاقة العابرة وان مافتنه فيهن (المثال)، وجاء واحدة منهن ينسبها الى المكان الى اخر مما دفعه الى التعارف عليهن خاصة، وان كل واحدة منهن ينسبها الى المكان الذي تعيش فيه، وهي اماكن ممتدة بين العراق ونجد واليمامة ونجران والبحرين أي تلك الاماكن التي كان يرتحل اليها سعياً وراء المال والمتعة.

وهو يعامل النساء اللاتي تعرف عليهن بالمثل لانه يعتز بنفسه وشبابه وشجاعته فهو يقول لهر مثلا:

وإذا تسلنني السنها　　　　انني لست بموهون فقر

لاكبير دالف من هرم　　　　ارهب الليل ولا كل الظفر

ويخاطب الحنظلية قائلاً:

فقل لخيال الخظلية ينقلب　　　　اليها فاني واصل حبل من وصل

فهل بامر خيالها بالرجوع اليها لانه يعامل الحبيبة كما تعامله هي فما دامت قد صرمته فهو يصرم حبلها من دون تلكؤ، كما ان نسبة المراة الى قومها (الحنظلية) يوحي بعدم الاهتمام بها بالنسبة للشاعر لان المحب يحس بالمتعة عندما يردد اسم حبيبته في كل مناسبة.

وتبدو سلمى مهملة اكثر بل ان موضوع الحب لا يعني عند طرفة شيئاً كثيراً، فهو عندما حاول ان ينقل لنا تجربة ذاتيه في هذا الموضوع فشل في ذلك لانه لم يعانيه بصدق نظراً لعمق معاناته من الظلم والاستلاب والرؤية الخاصة للحياة:

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله　　　　فهل غير صيد ارزته حبائله

كما حرزت اسماء قلبي مرقش　　　　يجب كلمع البرق لاحت مخايله

البعير المعبد – فان هذه الدرجة لم تكن على مادة على مايبدو... ان طرفة يجد تعويضه حين يلتفت إلى المجون العابث، وان كانت مجونه رفضا يستهدف استئناف العيش وفق لفلسفة مفادها وجود حضارة لاقمعية في علاقاتها الاجتماعية، وعندما يعزف طرفة عن استشعار ازمة الوجود ويتحول الى اللهو، الى التهام الهنيهة قبل ان تنفلت من عقال الزمن، فانه لا يفارق حالة التحسس التراجيدي للوجود، لا لأن اللهو سيء في ذاته بل لانه لا يجد مخرجا للازمة، وهو مخرج الظافر المستنكف عن الارعواء امام القمع، لقد كان هم طرفة الاول تبيان المفارقة بين عالمي الموت والحياة، بين الواقع (الموت) والطوبى (الحياة)، بين السكون، بين القمع والحرية.

وبلغ عدد ابيات الغزل في ديوانه تسعة وعشرين ومائة بيت، ونقصد بالغزل هنا ما تحدث به الشاعر عن حبيبته وديارها ورحلتها وما خلفته وراءها واثر فراقها في نفسه.

٦- الناقة الرمز

ان ارتباط الناقة بحياة الجاهلي جزء من حاجته اليها فهي تشكل اداة من ادوات صراعه ضد الطبيعة، وهي الوسيلة الوحيدة التي يتغلب بها على امتداد الصحراء، وهي والحصان شاركا الجاهلي معاناته الحياتية، فتوثقت الصلة المادية اولا ثم اخصبت الصلة نفسية نفذت بكثافتها الى اعماق الشعور الفردي والجماعي فاصبح " البعير يلهب رغبة العربي في الصياغة والتصوير الفني كمال البقر شعراء الهند في عصر (الفيدا) حتى امكن ان يقال ان شعرهم هو شعر (الرجففيدا) بعد استيحائه روح الثورة.

واتخذت الناقة بعدا نفسياً في الاعماق الجاهلية تجلت في رموز متعددة عند اغلب الشعراء، واتخذت في رموز اساسية عند معظمهم منها رمز (الهروب المكاني)لانها لم تكن وسيلة سفر وتنقل لقضاء حاجات مادية فحسب بل كانت كالشعر الذي يعد وسيلة تعويض ابداعي خيالي فهي مثل الشعر عبرت عن التحدي الواقعي لترامي الصراع ولا محدوديتها فالناقة اذن وسيلة هروب من الفقر والجدب والمخاطر وما يمثلة من شرور وهواجس وهي تجاور الطلل المحرك لشعور المأساة في نفس الشاعر والناقة هي البساط السحري الذي يستجيب بدون تردد لاوامر الشاعر ويطير به بعيداً عن عدمية الصحراء كما انها وسيلة هروب من مجتمع قاس او من صديق ناكر للجميل عند (ثعلبة بن صعيد) فقد التجأ الشاعر الى تجربة (المرقش) مع (اسماء) واورد ابياتا كثيرة يتحدث فيها عن مأساة المرقش في حبه لأسماء وما اصابه من لوعة جراء الوجد والفراق، وهو يبدأ القصيدة وكأنه يخاطب شخصاً اخر، أي كأن طرفة المحب هو خارج عن ذاته فخاطبه بصيغة القصيدة وكأنه يخاطب شخصاً اخر، أي كأن طرفة المحب خارج عن ذاته فخاطبه بصيغة المخاطب يحذره من حبائل المراة، ويبدو ان حالة الاغتراب التي وصل اليها الشاعر جعلته يعامل كل ما حوله بمنطق النسبية، فهو ان تحدث عن حبه لايبدو صادقاً او منفعلاً بتجربة ذاتيه فلجأ الى تجارب الاخرين لزيادة اليقين او الشك في كل التجارب إذ ان تجربته مع الاخرين اخرجته من دائرة السهولة والتلقائية والتواصل العاطفي.

وقد تكون نظرته في الاستمتاع والحياة وحسه الفطري وغريزته الشابة وواقع المرأة في العصر الجاهلي هي التي دفعته في الجانب الاخر التعامل مع المراة تعاملاً حسياً، فالغزل هو تعبير فني عن نزعة غريزية، وقد تكون الفعل الجنسي عند طرفة نتيجة لقلة غربته فهي مجرد لحظات تخبط

قبضة الفناء فقد " اقتصر غزله على الحديث عن الناحية الحسية المادية مما يصور جمال الجسم، وحسن الهيئة، وترف المعيشة وابهة الحياة، ولكن مما لا شك فيه ان اختلاف الصور في الوصف وفي تصويرها له بعد الفراق يدل على يقظة الشاعر ومقدرته الفنية وحبه للابداع في التصور وانواع التصوير.

لم يتعامل طرفة مع اللذة تعاملاً اباحياً ينسى فيه ذاته "إذ ليس منشأ هذا اللهو الترف او ما يجري في مجراه بل هو لهو صاحب الارادة الذي يريد ان يتحكم في كل ما حوله ليجريه على هواه"، وهذه اللذة لن تجلب السعادة الحقيقية للشاعر لان الانسان المغترب انسان بنخره الوعي الحاد وما محاولاته الهروبية في اللذة الا احتجاج صارخ على الفناء واللاجدوى، وتبتعد متعة طرفة عن الاباحية او الابيقورية في مزاوجتها بين الالم واللذة، والحقيقة والفناء، وماساة الموت هي المحور الرئيس في حياة طرفة وهي التي تلون حياته فيحاول ان يقنعنا في شعره باللاتناقص، فنسي الحقيقة التي تثير حزنه وتشاؤمه والتي تدفعه لطلب اللذة علها تخفف عنه ان لم تعوض له.

ونجد هذا التطرف في حياة طرفة متجليا في عنف شخصيته واندفاعها نحو الحياة محاولا تاكيد وجوده فيها باستنزاف طاقاتها عبر الفكر وعبر الغريزة التي يلجأ اليها الشاعر في حالات الاختناق ويبدو ان مواطن اللذة هذه لم تستطع دفع حياة طرفة الى نهايتها وكانت على قصرها غارقة في ماساة الانسان الازلية وما الخمرة والمراة الا اطياف سعادة عابرة بذلك تكون لذة طرفة لذة عابثة بقدر ما هي فجيعة تتهرب من الحاح الذات الحاح الجنين على الحبلى اما ان تضع حملها اوان تموت ان معاناة طرفة ليست معاناة حبه للمراة وانما معاناة ميتافيز يقية معاناة الوجود الانساني ومع ان طرفة تعرض الى درجة امل نبذ الجماعة له تحامتني العشيرة كلها وافردت افراد والناقة هنا اكثر من ناقة لانها كالسيف الباتر قطع بها الشاعر حبل الصداقة بعدما إهترأ لهذا يُخطئ من يرى في الناقة منبت كل ما أهم وأقلق وأحزن الشاعر الجاهلي؛ لان الشاعر القديم كان يظن الناقة رمز لكل هم او اهتمام اساسي وبينما بدا الفرس احيانا فرحا مختالا بدت الناقة مهموسة مثقلة بالاعباء حتى في لحظات النصر التي يتصورها الشاعر لان الناقة لم تكن منبت كل هم بل باتت مخرجاً له.

ولاتقارن الناقة بالفرس؛ لان الفرس غالبا ما ترد في الشعر الجاهلي في مشاهد الصيد او في المعارك التي مهما تعددت تبقى جزئية من جزئيات حياة الفرد الجاهلي وبقي حضور الفرس في اطار مترف لم ينفذ الى اعماق النفس الجاهلية اذا ما استثنينا فرس امرى القيس والشعراء الفرسان وبينما ظهرت الفرس في الغالب كاداة احتفالية واكبت الناقة هواجسة الكثيرة وثبتت كاداة يلجا اليها

الشاعر في محنتة وتبدو قيمتها في الاوصاف الكثيرة التي يسبغها عليها الشاعر وفي كثرة التسميات والتشبيهات.

واذا كانت الناقة اداة مجابهة للواقع عند كثير من الشعراء مثل الاعشى والنابغة ولبيد وعلقمة والمرقش الاكبر وزهير، فهي عند طرفة اكثر من ذلك لانها في نفسه كرمز متعدد المهام، فأدت دورها الحيوي الذي وجدناه عند مجمل الشعراء الجاهليين اذ تلتفت اكثر من ذلك عبر التجزئة النفسية التي مارسها الشاعر في مجالها الحيوي، فاصبحت الناقة هذا الشيء الكبير والمهم بالنسبة لطرفة بديلاً نفسياً ضم ضبابية الوجود المادي للصحراء المترامية والمتشابهة، واذا عددنا الصفات التي اوردها طرفة لناقته فهي:

- تشبه اروح الاران لسعة جنبها وشدة خلقها.
- كانها قنطرة الرومي المبنية بالقرميد لخامتها ومتانة بنائها.
- هي ككثيب الرمل المجتمع المستدير.
- جمجمتها مثل السندان في الصلابة.
- عيناها كالمراة الصافية.
- خدها كقرطاس الشامي في البياض.
- مشفرها كجلد البقر المدبوغ في اليمن.
- اذانها كاذان ثور وحشي في مكان مهجور في الحدة واليقظة.
- عنقها كسكان سفينة.
- ضرعها ذابل كالقربة الجافة.
- ذيلها كجناح نسر.

الى اخر ذلك من الاوصاف القريبة الى التاليه، خرجت الناقة من اطارها المادي وجعلتها شيئاً اسطورياً سحرياً يتلون بتلون نفسية الشاعر، الذي يندمج في الاشياء فيضفي عليها مشاعره وقد قيل ان الفنان يلون الاشياء بدمه، وكما راينا في الموقف الطللي يحاول طرفة مع الناقة ما حاوله مع الصحراء عندما ثبت فيها رمز الطلل، فالناقة ثابته في الواقع وحركية في النفس والخيال لانها رمز مصدره اللاشعور والرمز اكثر امتلاء واكثر تأثيراً من الحقيقة فهو ماثل في الخرافات والاساطير وفي كل الماثور الشعري.

ولانبالغ ان قلنا بان الناقة بتعدد انعكاساتها في نفسية طرفة مثلت اقوى رابطة تشده الى الوجود بل هي موطن (التموضع) الوحيد الذي عثر عليه الشاعر في ذلك المحيط العدمي ذي

الطابع الصحراوي السكوني الذي يطمس معالم الماضي، ويسحق تطلع المستقبل حيث لا نبات فيها ولاحيوان ولا معالم حضارية، وتبقى الناقة لدى طرفة موطن التجارب الخارجي الوحيد في تلك اللوحة الصحراوية ذات اللون الواحد الاصفر لون القحط والجدب المضاد لكل خصب واخضرار.

تبقى الناقة ملجا الشاعر الوحيد بعد ان افرد عن الاخرين افراد البعير الاجرب ولا نستغرب والحالة هذه ان يخص الشاعر ناقته بواحد واربعين بيتا من معلقته البالغة اربعة وعشرين ومائة بيت أي ما يقارب ثلث المعلقة وكانت مجمل رموز الناقة تسير في نسق توافقي مع نفسية الشاعر وشكلت الامتلاء والكثافة الموضوعية التي خلقها الشاعر هذه الناقة التي تمثل الحركة والانطلاق في صحراء جامدة ومجتمع جامد على مواصفات ثابتة وفي جريها تشبه نعامة تعرضت لظليم وفي هذه الصورة رمز للاخصاب لقد تغذت هذه الناقة على عشب سقي بماء المطر دلالة النقاء وقد انقطعت تماما عن المجتمع وبعدت عنه كما بعد طرفة عن مجتمعه فاصبحت الناقة جزءا منه فهي هو وتمتاز هذه الناقة بالحذر والتوجس لشدة سمعها وقوة بصرها وسرعة جريها، وهي شبيهة بالثور الوحشي في توجسها.

ويمثل الثور في الشعر الجاهلي هالة قديسة الهية فهي مثله فاقت مثيلاتها من بين الحيونات، وارتفعت الى مصافي الاساطير وهي تقوده اشبه بسفينة اودسيوس نحو المجهول، نحو الطهر والقداسة، نحو المثل السامية كما يراه هو: " والناقة التي يصفها طرفة في معلقته، ويمعن في تحليل عناصرها ويدقق النظر في اجزائها وجزئياتها ليست الا سفينة العبور الى الحياة الثانية فهي تشبه الواح نوح التي صنع منها الفلك الذي انقذه من الطوفان، وهي نفس الفلك في الملاحم القديمة الذي صنعه اتونبشقم، ولا يستبعد انه قد تعرف على هذه الاسطورة العراقية القديمة وهو الذي وصل في تطوافه الى جنوب العراق حيث مهد هذه الاسطورة فاستعارها لناقته.

بعد ان تعرضنا الى حضور الناقة كرمز نحاول ان نعرض هذه الناقة على صعيد توضيح دلالة الحضور الكثيف والمتنوع، فهي اداة هروب من الخطر الى المجهول، وهي طّيعة سلسلة القياد لصاحبها، وهي لاتختلف في هذه الاوصاف عن مجمل نوق الشعراء الاخرين، ولكنها اذا كانت لدى الاخرين وسيلة هروب مادي فهي عند طرفة وسيلة هروب من مواضعات المجتمع البالية، كما ان كثرة الاوصاف وتجزئة جسم الناقة تحملان مدلولا نفسياً دراميا عميقاً لماساة وجوده عبر توزعه النفسي على هذه الكثافة المشتقة التي خلقها، حيث يرى فرويد ان الفن الدرامي يتكون نتيجة تقسيم الذات الداخلية للفنان مختلف الشخصيات الدرامية.

وقد توزع طرفة بين اشلاء ناقته، فلم يكن كلا متكاملا كما هو في الواقع بل نشر ذمت في نفس الشاعر " وبينما تكون العلامات ثابته وغير غامضة تكون الرموز متغيرة وغامضة تحريف طرفة للناقة لم يكن عصابا بل كان ابداعاً فنياً وعادة خلق وصيانة باخضاع الواقع لرغبات النفس، في حين ان العصابي يقف هدفه في الخيال اما الفنان فيحققه عن طريق صياغة خيالات في موضوعات حياتية معينة، وفي صور حسية ذات نغم ولون.

ومما يؤكد المدلول النفسي لهذه التجزئة، ان الاجزاء تتخذ ابعاداً جنينية في رموزها واخرى حضارية، فهي (قنطرة من القرميد، وبوابة شامخة لقصر وسفينة.. الى اخره) وهذه الاوصاف تدل على الاستلاب الحضاري الذي يعيشه طرفة، فجعل من اجزاء الناقة معالم حضارية اقامها خياله في الصحراء رمزا للاستقرار والتمدن، رمزاً لطموحه، وجعل صوت الجارية عند الغناء اشبه بصوت الناقة:

اذا نحن قلنا اسمعينا انبرت لنا   على رسلها مطروفة لم تشدد

اذا رجعت في صوتها خلت صوتها   تجارب اضار على ربع ردي

فالناقة هنا هي المشبه به، فصوتها اذن هو الاصل في تذوق طرفة للغناء ثم ياتي صوت الجارية ليقاربه، وترتبط الناقة من رمز المراة عنده:

فدالت كما دالت وليدة مجلس   تري ربها اذيال سحل ممرد

فشابهت المراة في الرقص والغناء كما تشابهها في فخذيها الشبيهين بالباب الممرد، وفي ذودها عن فرجها اتقاء صولة الفحل.

فالناقة اذن هي التحدي في التزام طرفة لفرديته داخل المجتمع يحس الاغتراب عنه ولكنه يحس في نفسه القدرة على تحديه، ويحاول تغيير اخلاقياته وترك اثر واضح على صفحة الوجود الانساني، وبقي صراع طرفة على صعيد الاحساس " فهو يرفض ان تكون الحياة مجرد تكرار لامعنى له من التفاهات الانسانية " والاغتراب احساس قبل كل شيء، والاحساس هو الذي يولد الوعي لانه يرتبط بالاعماق النفسية تلك الاعماق التي تتفاعل ببطء وثبات وتختزن مجمل المسار البشري، ويؤكد نيتشة هذه الحقيقة بقوله " الفن لاشيء غير الفن، لدينا الفن لكي نموت بسبب الحقيقة، فقد واجه طرفة غموض الوجود الانساني ورفض كل ما تقدمه العقائد ونصب نفسه الها يفتت الكون من حوله ويعيد صياغته في شعره "والشعر قوامه التزامي أي اللانهائي والالهي كانه

ينزل منزلة البديل عن فناء الانسان" فاحتج على الموت وعلى الحياة لابداعه الشعري وبخلجاته النفسية وكانه احس بان الحرية الحقيقية هي خضوع داخلي لقيمه تتحدى التاريخ ومكتسباته.

واجد من الضروري ذكر قول طه حسين لاننا ننكره كل الانكار ونعجب ان يصدر عن رائد من رواد الفكر العربي الحديث: نحن بازاء بقايا قصيدة لطرفة.. وانما هي ناقة دست عليه دساً.. كيف نستطيع ان نتفهم هذا الاختلاف العظيم بين الجزء الذي وصفت به الناقة وبين ما بعده وقبله من اجزاء، الست ترى في وصف الناقة اغراباً وتكلفاً للالفاظ يقل استعمالها، ويندر ان تنطق بها الالسنة الا عند الاختصاصيين، ولاحاجة الى تفنيد هذا الراي لاننا نفياه بكل ما اوردنا في هذه الدراسة.

٧- لا جدوى الصراع والاحساس بالموت

يصل طرفة الى عالمه حيث الشجاعة والكرم والتعامي والخمر حيث البياض الدال على النقاء والطهر فالندامى " اطهار ملائكة يمدون ايديهم للمس (القينة/ المراة) والتبرك بها فكانها قديس يتسمح به المريدون وتبركون بلمسه لانها مصدر طهرهم وأشد سحراً من أميرها... هذه الرقة تعويض لما افتقد الشاعر في قومه...فاذا مثل المجتمع الارضي الارواح الشريرة فان هذه المراة تتحول الى ينى من اميرات ملوك سام الى كاليبسو حين تترفع عن انانية الاله لتشرق بالخلود والحب الالهي:

فلست بحلال التلاع مخافة		ولكن متى يسترفد القوم ارفد
وان تبغني في حلقة القوم تلقني		وان تتصني في الحوانيت تصطد
نداماي بيض كالنجوم وقينة		تروح علينا بين برد مجسد
رحيب قطاب الجيب منها رقيقة		بجس الندامة بضة المتجرد
اذا نحن قلنا اسمعينا انبرت لنا		على رسلها مطروفة لم تشدد
وما زال تشاربي الخمور ولذتي		وبيعي وانفاقي في طريفي ومتلدي

وهذا هو العالم الذي تطلع اليه طرفة عالم السعادة والنقاء والصفاء بعيداً عن القهر والاستلاب ولكن فشل في تحقيق عالمه الذي سعى الى تحقيقه:

الى ان تحامتني العشيرة كلها		وافردت افراد البعير المعبد

وعندما تفشل محاولات الهروب من واقع القهر الى العالم الذي يصبو اليه الانسان تصبح الحياة موتاً بطياً، ويحفل ديوان بالاحساس العدمي الذي فرضه الواقع السلبي وغياب التعويض الفكري والحيالي حيث نلقى سبح الموت في اكثر لحظات الشاعر حياة وتدفقاً، ويختلط هذا الإحساس بالخمرة والناقة

ويمتزج مع كل هذه الأشياء وكأنه سبب فرضه على حياة الشاعر، فنجد رباطاً رفيعاً يصل بين الحب المضطرم للحياة واليأس الخفي منها.

وقد كانت حياة طرفة مواجهة وتحدياً في جانب وهروباً عندما يفشل في تحقيق عالمه، وتجسد شعره بهذه المعاني فقد أورد ستة عشر ومائة بيتاً في رايه في الحياة والظروف التي أحاطت به، مما كان له اثر في سلوكه ومعيشته وصلته بمن حوله خاصة أقاربه وعشيرته، وهو يرى في الحياة فترة قصيرة يقضيها الإنسان في هذا الكون وتنتهي بالموت، فالحياة في نظره كنز ثمين ولكن هذا الكنز في نقصان مستمر، وكان طرفة يؤمن بانه لابد ميت ولكنه لا يدري متى يموت لذا فهو يتوقع الموت في كل لحظة فلجا الى المرأة والخمرة وحياة اللهو، ولكن الخمرة لم تكن بديلاً متكاملاً لطرفة كما كانت بالنسبة للاعشى لان هذا الاخير لم يعاني الاستلاب مثل طرفة ولم يعبر شعره عن ازمة الانسان الجاهلي مثلما حدث بالنسبة لطرفة، فكانت الخمرة عن طرفة وسيلة للتفتح على الاخرين، لانها وسيلة لا غاية بالنسبة له فهو يشربها ليحاول الخروج من دائرة اغترابه وقلقه، فهو يدعو اصدقاءه لمنادمته وكانه من الجلسة الخمرية بذرة تحد جماعي يواجه بها عادات المجتمع:

متى تاتني اصبحك كاساً رؤية   وان تك عنها في غنى فاغن وازدد

نداماي بيض كالنجوم وقينة   تروح علينا بين برد مجسد

والمراة والطلل مكانه اكبر لانه حاول ان يجعل من هذه الموضوعات بديلاً موضوعياً لانها كيانات خارجية أخضعها طرفة لتجربته النفسية فازمته الموضوعية اولاً (البيئة الخارجية وقسوتها) اما الاحاسيس التي تبعث من الخمرة فهي احاسيس ذاتية بحتة وحتى لو امتزجت الخمرة بذات الشاعر واثرت فيه تأثيراً كبيراً لن نجدها مستقلة عن تجربته الداخلية، ولم نجدها مشخصة في شعره لان الخمرة قد تشل " لحظة الانفصال عن الواقع حاملة معها الاحساس المريح المهدي للنفس ازاء ما ينتابها من قلق وضيق " عند الشخصيات الضعيفة، وقد تحمل احساساً معاكساً فتكون اداة تكثيف لماساة الواقع خاصة عند الشخص المغترب والقلق اذ تزيد من حدة الشعور بمرارة الاغتراب والتوحد مع الذات " ويمكنها ان تحفل باعمق التجارب الانسانية لانها تجعل الانسان ميالاً الى التامل كما تجعله مستقلاً وكلاهما ينزع لخلق شخصية غير مقيدة كثيراً ما يسعى عليها ان تتلاءم مع عالم الناس العادي المالوف.

+فاذا كانت نفسية شاربها مسطحة اغرق في الطرب وان كانت نفسية مركبة غرق في الاسى لان الخمرة تعطي الاحساس شفافية سواء في حالة الماساة او السعادة، وهي عند المغترب القلق محاولة لتغير المحيط الرتيب والممل، محاولة للخروج عن المالوف ومنذ القديم رمزت الخمرة في

الاساطير الاغريقية للتعبير عن الخوف من المجهول ومحاولة تجاوزه باختلاطها بالجنس رمز الخصب وبالرقص رمز الحركة والتحدي، وقد تمسك طرفة بالخمرة لانها رمز تحديه للاخرين.

اكثر طرفة من التجوال سعياً وراء مثله، وذكر في معلقته بقاعاً مترامية الاطراف مثل (دجلة شرقي الجزيرة، وحمل في غريبها، وثهمد في وسط نجد، وصرغد في شمال نجد، ودد في نواحي البحرين، الى اخر ذلك من الاماكن)، وهذا الترحال فرضه عليه قلقه الدائم الذي يسيطر على الوجود، والتكرار الرتيب الممل للحياة الانسانية الذي يسيطر عليه ن وقد حاول طرفة الانفلات من الاسر الصحراوي باحثاً عن الخصب:

تعيير سيري في البلاد ورحلتي   الا رب لي سوى حر دارك
وليس امرؤ افنى الشباب مجاورا   سوى حيه الاكاخر هالك

ويمثل الرحيل عند طرفة البحث عن الخصب والاستقرار وقهر الزمن، ويحاول طرفة استيعاب الطبيعة ويصفها ويخصص تسعة وسبعين بيتاً من شعره في وصفها، وله في الناقة اثنان وخمسون بيتاً، وفي الخيل ستة عشر بيتاً، وفي البقر الوحشي ثلاثة ابيات، وبيتان في السيف وبيتاً واحداً في كل من ظبي وعقاب وقلوب طير، وهو يتعامل مع الصحراء وحيوانها ونباتها وقفزها تعاملا حسياً مباشراً يجعلنا نحس بالاشياء ونلمسها ونراها، ولما كان الشاعر الجاهلي مؤطراً بالموضوعيات بحيث يعسر فصله عنها مما يوحي بتلاشيه وانطفائه في الواقع لابتعاليه فوقه "

ويفشل طرفة في رحيله لان القحط الصحراوي والحضاري والقهر يحيط به من كل جانب واينما ذهب، لذلك لازمه الاحساس بالموت ولم يستطع تصريفه في الرحيل.

ويختلف احساس طرفة بالموت عن احساس الشعراء الجاهليين الاخرين اذا استثنينا قلة منهم مثل امرى القيس، لان احساسهم ؤقت ياتي في لحظات معينة متصلة بالعواطف اليومية والاهتمامات الصغيرة كالطعام والمال والنساء، وتغلب على الخوف عندهم من الفناء فاستطاع بذلك المثابرة على نسيانهم ومتابعة حياتهم برتابة وهدوء، ولم يذكروا الموت الا في ازمات معينة كالحروب وسني القحط اما طرفة فقد تعامل مع الموت تعاملاً وجدانياً نفسياً ولم يفصله عن الحياة، وهو لايحتاج الى دفع خارجي يذكره بهذه الماساة لانها تعيش في داخله وتتمحور حولها حياته حيث يحل الموت في الطلل الجامد، والمراة المتعة، والخمرة السلوان، والناقة الهروب من الواقع فهو عندما يشرب الخمرة يحس بنهايته القريبة:

كريم يروي نفسه في حياته   ستعلم ان متنا غداً اينا الصدي

وقد فرضت التجربة الحياتية المكثفة التي عاشها في سنيه القليلة، واستطاع خلالها استنفاد رموز الحياة الفارغة هذا الشعور بالفناء:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى   وجدك لم احفل متى قام عودي

واستنفد طرفة الرموز الثلاثة التي اقتصرت عليها الحياة فاحس بانتظار الموت:

لبست الليالي فافنيتني   وسربلني الدهر في قمصه

فهو الذي لبس الدهر لكن الدهر هو الذي افناه قبل ان يبلغ العشرين من عمره:

ولقد بدا لي انه سيغولني   ما غال عاداً والقرون فاشبعوا

وتمثل طرفة احساسه عن طريق التجربة التاريخية والاسطورية فهو لن يخرج عن دائرة القانون الجائر قانون الفناء الازلي، وندرك عدم زواج طرفة على الرغم بلوغه سن الشباب خاصة وان ظروف المجتمع الجاهلي تحتم الزواج المبكر، ولانجد في شعر طرفة تعليلاً لعدم الزواج بل مجرد ذكره، ويبدو ان طرفة قد يئس من الاخصاب في كل مواطنه (في الارض او في المراة او في المجتمع) وبما ان الناقة تمثل بديلاً موضوعياً فهو يعاملها بمنطق الفناء ويمنع عنها الاخصاب المتمثل بالانجاب:

تريع الى صوت المهيب وتتقي   بذي خصل روعات اكلف ملبد

فتهرب ناقته من الفحل وتتقيه بذنبها وهي ترفض الاخصاب كما رفضته عندما هدمت الطلل كما رفضه الشاعر بعدم زواجه واقدامه فحل الموت برجليه:

وينفذ احساس الموت الى البنية الشكلية لشعر طرفة والى النسق الصوتي " والاسلوب هو تقاطيع الذهن وملامحه وهو منفذ الشخصية اكثر صدقاً ودلالة من ملامح الوجه " فعندما نقرأ معلقة طرفة نجد ان ترتيب ابياتها يخدم النسق النفسي للشاعر مع البداية الطللية والاغراق في وصف الناقة ثم الفخر فالتلاشي، وقد كتبت المعلقة في وقت مكثف فجاءت جمعا لما تشتت في بقية الديوان مكثفة لشعره كله خلافا لما يراه (ماكس سلغسون) من " ان عدم تناسق الابيات والموضوعات في نفس القطعة تدلنا على انها لم تنظم في زمن واحد"

واذا سلمنا بان الحركات تحمل دلالة موسيقية واخرى معنوية زيادة على دلالتها النفسية سنجد ان الحركة الطاغية في قوافي الشاعر هي حركة السكون، ولم ترد هذه الحركة اعتباطاً بل تجسيداً حيا لمعاناة الشاعر ولمذهبه في الحياة ن فالبيت الشعري يتكون من مجمل الفاظ وحركات تعطي الالفاظ دلالة معنوية، ولم تكن حركة الرفع في الفاعل تلقائية بل عبرت عن القوة التي تحملها الكلمة،

فجاءت حركة الرفع من اقوى الحركات لما لها من فخامة صوتية، اما النصب فشبيه بالمد وقريب من السكون لذلك جاء المفعول به الذي يحتل المكانة الثالثة في الجملة.

واذا اخضعنا ديوان طرفة لعملية احصائية سنجد ان القافية الساكنة تختم خمسة وسبعين ومائة بيتا من أصل الديوان الذي يضم ثلاثمائة بيت أي انها تحتل اكثر من نصف الديوان، وتتوزع بقية الحركات خاصة الكسر على بقية الشعر اذ يقترب الكسر في دلالته من السكون، مما له دلالة عميقة في نفسية طرفة " لان الحركات والسكنات تتساوق مع الحالة الشعورية لدى الشاعر، ولم تعد موسيقى الشعر بذلك مجرد اصوات رنانة تروع الاذن بل اصبحت توقيعات نفسية تنفذ الى صميم المتلقي تهز اعماقه، وكان البيت الشعري يمثل الحياة بحركاتها الصاعدة والنازلة والتي تختم في الغالب بالسكون الذي يمثل الموت، وقد يكون الاحساس بالفناء هو الذي ينهي كلامهم بالسكون، واصبح هذا الاحساس قاعدة (وجوب الوقوف على السكون).

واذا لاحظنا ان الناقة قد مثلت الكثير في حياة طرفة على صعيدها المادي وعلى صعيدها الرمزي، فهو عندما يتكلم عن الناقة فكانما يتحدث عن نفسه، فيفخر بنفسه عبر الناقة ويجسد فيها استلابه الحضاري والطبيعي عندما يشبهها بالقصر والقنطرة والسفينة ويجسد فيها قهره الاجتماعي وقهره الجنسي عندما يشبهه بجارية ترقص او تغني او عندما يصف ردفيها وعينيها ووجنتيها ووجيف قلبها.

وثلت الناقة الوسيلة الى اكتناه المجهول والامل في تحقيق مثله، فقد كانت علاقته بها علاقة توافق وانسجام فاذا به بخبرنا بعد ذلك انه استل سيفه ونحرها مما حدا بمصطفى ناصف ان يقول " الواقع ان فكرة الناقة من اكثر الافكار تنوعاً، وهي منبت كل ما اهم واقلق الشاعر الجاهلي... وهي رمز معقد مازال طرفة يفكر في امر هذه القوة الهائلة حتى انكرها " ولكن طرفة لم ينكر الناقة وانما انكر نفسه من خلالها فقد تجيدت، وهو يرمز الى افتخاره المادي القريب بنحر الناقة، وكانه بذلك ينهي صلته بالحياة.

وياتي حادث نحر الناقة بعد رحلة الشاعر الطويلة، وبعد محاولاته اليائسة لفرض وجوده لذلك، وردت ابيات حادثة نحرها قريبة من نهاية المعلقة التي هي تكثيف ابداعي لمجمل حياة الشاعر، وورد نحر الناقة مباشرة بعد التساؤل عن سبب رفض الاخرين له، وبعد محاولة فرض نفسه بالفخر وتعداد فضائله الشخصية مقابل مساوى الاخرين وتسلطهم.

وبرك هجود قد اثارت مخافتي ... نواديه امشي بعضب مجرد

فمرت كهاة ذات خيف جلالة ... عقيلة شيخ كالوبيل يلندد

يقول وقد تر الوظيف وساقها   الست ترى ان قد اتيت بمؤيد
فظل الاماء يمتلكن حوارها   ويسعى علينا بالسيف المرهد
فان مت فانعيني بما انا اهله   وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

نلاحظ نزعة التعلق بالحياة التي حاول الشاعر اخفاءها في رمز الشيخ الوقور الذي حاول ان يمنعه من نحر الناقة (الانتحار) وكانه يحاول ان يشده للحياة، لكنه عندما يئس منه قال (ذروه فانما نفعها له)، والناقة التي نحرها طرفة كانت في حالة خصب (علي وشك الولادة، فالحوار الذي اخرجوه من بطنها بعد نحرها كان مكتملاً كثير اللحم، وكان طرفة يقتل كل محاولة في اخصاب الحياة عن طريق نحر الناقة، وحوراها الذي حكم عليه بالموت قبل الولادة، فالناقة هنا رمز الحياة عن طريق نحر الناقة، وحوارها الذي حكم عليه بالموت قبل الولادة، فالناقة هنا رمز الحياة التي قتلها الشاعر في نفسه اولاً باستهلاكها ثم قتل نفسه على اثرها حيث يتطرق راساً الى موته القريب المرتقب.

ماذا تبقى لطرفة بعد نحر الناقة (التحدي ووسيلة اكتناه المجهول وتحقيق المثل التي يصبو اليها بدلاً من المواضعات الاجتماعية المهترئة)؟

الحياة بعد ذلك لايمكن ان تعاش، وفقدت الومضات الحياتية بريقها (الخمرة والمراة والشجاعة والكرم والعطاء)، وقد انكر الاخرون عليه كل ذلك فملها الشاعر واكتشف زيفها وغادرها وهو يشعر بالفراغ الرهيب والياس القاتل.

فهل يستطيع الاستسلام؟

حاول ان يستسلم لفترة وجيزة وهو في اشد حالات غربه فقد انهدم داخلياً لان العشرة افردته افراد البعير المعبد فبين الخصائص التي يمتاز بها وانه حريص على القبيلة اكثر من أي شخص اخر:

وفربت بالقربى وجدك انني   متى يك عهد للنكيثة اشهد
وان ادع للجلى اكن من حماتها   وان ياتك الاعداء بالجهد اجهد
وان يقذعوا بالقذع عرضك اسقهم   بشرب حياض الموت قبل التهدد
بلا حدث احدثته وكمحدث   هجائي وقذفي بالمشكاة ومطردي
فلو كان مولاي امرء اهو غيره   لفرج كربي او لانظراني غدي

ولايمكن ان يكون هذا الجهد في عرض نفسه اللااسطوري على القبيلة " الا اقناع الجماعة بقبوله عضواً فيها " ويبدو تضخم فخره في المعلقة وسيلة لاقناع الجماعة باهميته وتأثيره:

انا الضرب الذي تعرفونه   خشاش كراس الحية المتوقد

ولكن سرعان ماعدل عن ذلك ونحر الناقة وانتحر انتحاراً معنوياً بمجرد استكانته واحساسه بانه خاضع لسيطرة عشيرته ومجتمعه، لانه لايتمكن من الرضوخ والاستسلام للاسوار المحيطة به بل يثير التحدي، ولو جاء التحدي بالموت نفسه:

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي   فدعني ابادرها بما ملكت يدي

استهلك حياته في شبابه ولم يتحمل حياة الاخرين الراكدة " لان اللاجدوى ليست في الانسان وليست في العالم وانما هي في وجودهما معاً، واللاجدوى هي الرابطة الوحيدة التي تجمع بينهما " فالعلاقة بين الانسان والعالم هي علاقة تضاد بين الداخلي والخارجي، ولن يجد الانسان حلاً الابتجاهل احد العالمين، لكن طرفة لن يتنازل عن عالمه الداخلي ولن يتساهل مع سلبية العالم الخارجي فلا توافق ولا حل الافي الانسحاب، وان كان الموت لابد منه فليكن بفعل ذاتي ارداي وفي وقت يريده الشاعر، فليكن تجربة بحث عن حقيقة مجهولة، ولم يبق لطرفة سوى الرحيل، رحيل صاحب الارادة الذي يوقف عبث الحياة متى يشاء.

فانتحار طرفة لم يكن نتيجة انهيار عصبي او تأجج عاطفي بل نتيجة امتداد العي الانساني الذي يرفض حدوده، وكان الانتحار هو النهاية الحتمية لشخصية طرفة بكل صفاتها الحسية وتطرفها الحاد الذي اوضحناه سابقاً، وقد جرب طرفة في مسار حياته القصيرة كل مسالك الوجود عله يجد سبباً يبرز به مواصلة درب حياته كانسان حر مسؤول في غياب كل عقيدة لانه لم يجد ما يبحث عنه في الاديان ويقتنع بالخلود بعد الموت:

ايهذا اللائمة احضر الوغى   وان اشهد اللذات هل انت مخلد

وادرك فناء الحياة التي هي موطن السعادة والشقاء والغنى والفقر:

كريم يروي نفسه في حياته   ستعلم ان متنا غداً اينا الصدي

وجعل الموت من مسار الحياة مساراً عبثياً عندما ساوى بين الكريم والبخيل والشجاع والجبان والغني والفقير فجمع كل المتناقضات الانسانية وابتلعها موحدة في مسار العدم فاصبح كل فعل انساني خالياً من كل معنى او هدف، وافعال الانسان غير مجدية تنخر فيه وترجو فناءه:

ارى قبر نحام بخيل بماله   كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما   صفائح صم من صفيح منضد

وغالباً ما ينتج في حالات الوعي عن خوف من الفناء أي ان الحياة هي الوعي بالفناء وتعجيل الانتحار يعني التخلص من ذلك الوعي الحاد الذي ينخر في الانسان لكن انتحار طرفة لم يكن دافعه الخوف من الفناء بقدر ما كان استنفاد الكل، ايبرر الحياة في تلك الفترة (الجاهلية)، وقد اعطانا طرفة مفهومها عن الحياة بعد ان اختبرها وفك الغازها، فبعد ان شرب ماء الحياة رمى بقنينتها فارغة، لانه لم يعش حياة زهد بعيدة عن المحسوسات بل عاش كما يجب ان يعيش شاب متدفق، بحث عن الجديد فلم يجده في رحيله المستمر ولم يجد ديناً يملأ فراغه ويواجه به الفناء.

وخلو حياة طرفة من اله تؤكد التزامه بفعل الانتحار فهو لم يغادر الحياة بحثاً عن حياة اخرى جيدة، ولم ينخر لحيل في جسم اخر عبر التناسخ بل انتحر احتجاجاً على محدودية الحياة وفيضان الذات الانسانية على انائها الصغير الذي يضيق عنها، واما يقينية العدم عند شاعرنا ينتفي دافع الخوف من الموت فكان الانتحار تحدي للفناء لان الموت عند طرفة هو نهاية الوعي والاحساس كما يقول (ابيقوريس):" ليس الموت شيئاً بالنسبة الينا لان ما ينحلى يصبح عاجزاً عن الحس، وما لا يحس ليس شيئاً بالنسبة الينا"

ويحمل انتحار طرفة تصميماً غريباً يفوق الشجاعة لان الانتحار جاء عن وعي وتصميم، بل ان حياته كانت في مجملها بحثاً عن الانتحار تجسد في الجراة المتهورة والمواقف المتطرفة من الاخرين فهو يهجو الملك الشرير عمرو بن هند، ثم يذهب اليه ويذهب في معية اخيه عمرو بن امامة الذي يسعى في الحصول على حته في الملك، ويطالب طرفة الملك المستبد بالاخذ بثار اخيه (عدوه) بعد قتله، ويهجو اخاه قابوس ثم يزوره بعد ذلك طالباً نواله دون خوف او وجل، وقد وصفته معظم المصادر القديمة بالتمرد وحدة اللسان والجراة الشديدة.

وانتحار طرفة هو انتحار رفض الحياة، انتحار قطع الصلة بالوجود على الرغم من ان دافعه الاول هو الاحتجاج الشامل والكلي على مجمل الحياة وليس على جزء منها، وهذه الرؤية هي التي قلصت حياة طرفة فلم يتجاوز العشرين لان تعامله مع الحياة تعاملاً حسياً لم يمكنه من الاستمرار في الانتحار المعنوي، فقد اصر طرفة على المضي الى حتفه برغم تنبيه المتملس له وتحذيره اياه وحثه على الفراق الا انه رفض ذلك وكانه منجذب الى الموت الذي ينشد فيه حريته بعد ان افتقدها في مجتمعه.

انتصر طرفة على ازمته الماورائية بانتحاره، هذا الفعل الذي بقي بعد مرور قرون على ماساة الشاعر المخرج من دوامة الصراع اللامتكافى، وغادر طرفة الحياة وهو يشرب الخمر وقد فصد عرق ساعده (الاكحل) حتى مات، ان هذا الاختيار لطريقة الموت لم يكن تلقائياً بل يؤكد اصراره على الموت

وعدم خوفه منه، يواجهه على مهل ويشهد تجربة موت كما شهد تجربة حياة فاسال مصير الزمن الذي عاشه قطرة فقطرة حتى لحظات همودة.

المصادر والمراجع

١. الادب والفلسفة والعوي الطبقي، جورج لوكانتش، ترجمة: هنريت عبود، دار الطليعة ط١، بيروت، ١٩٨٠.
٢. اسطورة سيزيف، البير كامو، ترجمة: انيس زكي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩
٣. الاغاني،ابو الفرح الاصفهاني، دار الثقافة،بيروت، ١٩٦١
٤. الانسان المتمرد، البير كامو، ترجمة: نهاد رضى،دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩
٥. ايام العرب قبل الاسلام لابي عبيدة، عادل جاسم البياتي، مكتبة دار الجاحظ للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٦٧
٦. تاريخ الادب العربي،ريجيس بلاشير، ترجمة: ابراهيم الكيالي، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٧٣
٧. تاريخ الادب العربي، كارل بروكلمان،ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف،ة مصر، ١٩٣٤.
٨. تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد علي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٧٥.
٩. تاملات في عالم طرفة بن العبد، علي بعروب، جريجة العلم، المغرب، ١٩٨٥/١١/٢٨.
١٠.تفسير الاحلام، سيجموند فرويد، ترجمة: مصطفى صفوان، دار المعارف، ط٧، مصر، (د. ت).
١١.التفسير النفسي للادب، عز الدين اسماعيل، دار الثقافة، بيروت، (د.ت).
١٢.حديث الاربعاء، طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣.
١٣.دراسات في الشعر الجاهلي، نوري حمودي القيسي، دار الفكر، دمشق، (د.ت).
١٤.ديوان طرفة بن العبد، جمع ودراسة: علي الجندي، مكتبة الانجلوا المصرية، مصر، ١٩٥٨.
١٥.ديوان طرفة، دار صادر، بيروت، ١٩٦١.
١٦.ديوان طرفة، مطبعة برطرلد، باريس، ١٩٠٠.
١٧.سقوط الحضارة، كولن ولسون، دار الادب، ط٢، بيروت، ١٩٧١.
١٨.شعراء النصرانية قبل الاسلام، لويس شيخو، دار المشرق، ط٢، بيروت، ١٩٦٧.
١٩.الشعر الجاهلي: قضاياه الفنية والموضوعية، ابراهيم عبدالرحمن محمد، دار النهضة العربية، مصر، ١٩٨٠.
٢٠.الشعر الجاهلي، محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، (د.ت).
٢١.الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الثقافة، ط٢، بيروت، ١٩٦٩.

٢٢.الشعر واللغة، لطفي عبدالبديع، مكتبة النهضة المصرية،ط١، مصر، ١٩٦٩.
٢٣.طبقات فحول الشعراء، اتبن سلام الجمحي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠.
٢٤.فن الادب، شوبنهاور، ترجمة: شفيق مقار، الدار القومية، بيروت، ١٩٦٣.
٢٥.الفن والتصور المادي للتاريخ، جورج بليخانوف، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.
٢٦.قراءة جديدة لشعرنا القديم، مصطفى ناصف، منشورات الجامعة الليبية، طرابلس (د.ت).
٢٧.مدخل الى الشعر الجاهلي، احسان سركيس، دار الطليعة، بيروت،١٩٧٩.
٢٨.مسائل في الابداع والتصور، جمال عبدالملك بن خلدون، جامعة الخرطوم، السودان، ١٩٧٢.
٢٩.مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، دار الحقائق، ط٢، بيروت، ١٩٨٠.
٣٠.موسوعة الشعر العربي، تقديم: مطاع صفدي وايليا حاوي، شركة خياط للكتب والنشر، بيروت، ١٩٧٤.
٣١.نحو رواية جديدة، الان روب غريبه، ترجمة: مصطفى ابراهيم، دار المعارف، مصر، (د.ت).
٣٢.النقد الادبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، ط٣، مصر، ١٩٦٤.
٣٣.نماذج من النقد الادبي، ايليا حاوي، دار الكتاب، ط٣، بيروت، ١٩٦٩.

A modern approach to studying ancient texts of Tarfa Bin Al-Abd

Prof. Omar Muhammad Al-Talib
Department of Arabic Language / College of Education / University of Mosul

Abstract

The first human movement was with nature, and this movement is conditional on the natural circumstance that embraces the human being, and it is either a movement of coexistence and coexistence, or a movement of alienation and collision, and the fertile nature is a haven for man in his material and psychological crises, and it is either a resort to its embrace and merging in it. From him, his psyche and his temper are colored by this sharp contradiction between the reality he aspires to and the reality that restricts him, so nature is defeated and subjected to reality, so he tries to defeat it and subjugates it in imagination.